313

HARLEQUIN

روايات أحلام

لا تلومي القدر

لي ويلكنسون

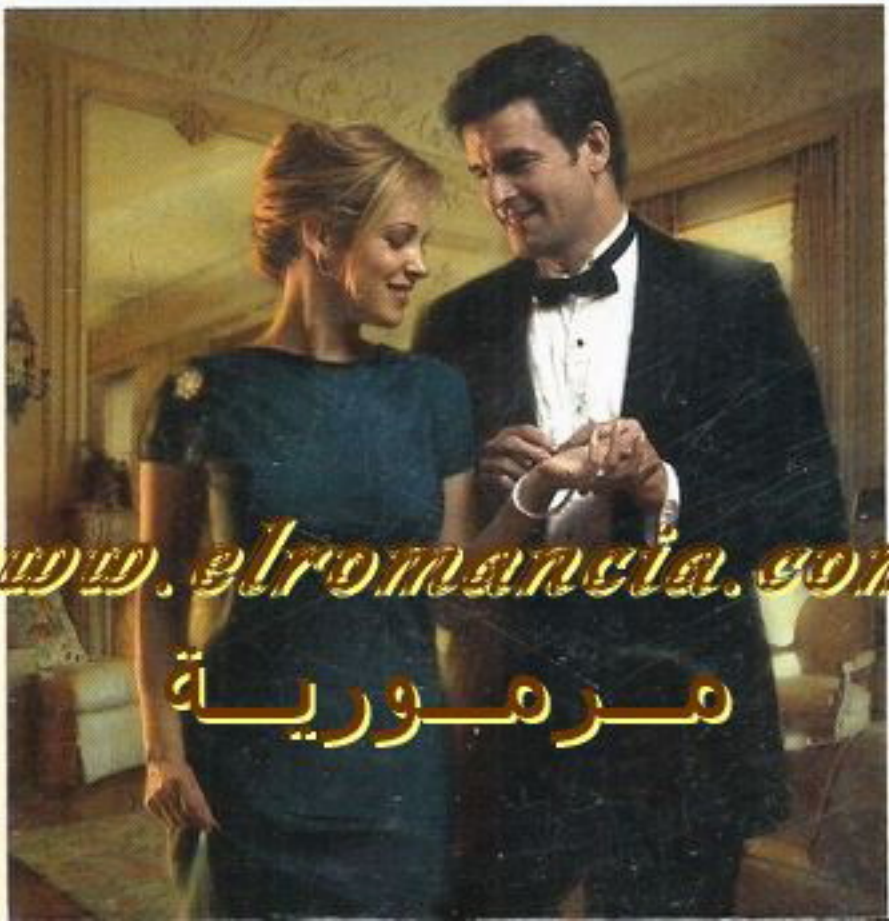

www.elromancia.com
مرمورية

لا تلومي القدر

بدأت القصة في رسالة: «أنت ما زلت صغيرة جداً على الحزن والألم اللذين عانيت منهما يا نيكولا ... حان الوقت لتغيّري وضعك في الحياة. كوني سعيدة!»
وكان برفقة الرسالة خاتم يجلب السعادة لكل من يلبسه.
لكن هذا الخاتم أوقعها بين يدي دومينيك لوريدان. وسجنها هذا الرجل الإيطالي الرائع في قصره حتى يجعلها تدفع الثمن:
- لا تتوقعي مني أن أصدق أنك امرأة ساذجة وبريئة كما تدّعين. أعرف أن أميّز البراءة عندما أراها.
ليته لم يأخذ هذه الفكرة السيئة عنها! لكنها لا تستطيع أن تلومه. فهل ستتمكّن يوماً من إقناعه ببراءتها. أم أن القدر جمعهما لكي يتواجها على حافة هوة بحيث لا يستطيع أحدهما العبور باتجاه الآخر!

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-189-X

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

The Venetian's proposal

First published in Great Britain 2002

Harlequin Mills & Boon Limited

© Lee Wilkinson 2002

Translation © Dar El-Farasha - 2004

ISBN 9953 - 15 - 189 - X

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان

Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص

أسرة أحلام

www.romancia.com

لي ويلكنسون

تعيش لي ويلكنسون مع زوجها في منزل ريفي مشيد من الحجر، يعود تاريخ بنائه إلى ثلاثماية سنة خلت، في قرية (ديربيشير)، التي غالباً ما تعزلها الثلوج شتاء. يتمتعان معاً بالسفر ومؤخراً قاما بالتعاون مع ابنتهما وصهرهما برحلة حول العالم دامت سنة كاملة دون انقطاع. من هواياتها القراءة والاهتمام بالحديقة وإقامة حفلات الشواء المفاجئة لعائلتها وأصدقائها.

١ ـ بين ليلة وضحاها

ـ أرجوك، تفضلي بالجلوس يا سيدة ويتني.

طويلة، رشيقة، وقد رفعت شعرها القمحي إلى أعلى... سارت نيكولا عبر الغرفة القديمة الطراز التي تكسو أرضها سجادة خوخية اللون وتتدلى على جدرانها ستائر مخملية سميكة.

بعد شرب القهوة وتقديم التعازي، بدأ السيد هارتهل العمل: «في المرّة الأخيرة التي جاء فيها موكّلي إلى لندن، طلب مني أن أكتب له وصية جديدة. الآن، بصفتي محاميه ومنفذ الوصية، يمكنني أن أخبرك أنك المستفيدة الوحيدة من تلك الوصية».

حملقت نيكولا في وجه المحامي ثم سألته متلعثمة: «أر.. أرجو المعذرة.. لم أفهم؟»

كرّر السيد هارتهل كلامه بصبر: «أنت المستفيدة الوحيدة. وبعد الانتهاء من الإجراءات الرسمية المعتادة، ستصبحين امرأة ثرية».

كانت نيكولا قد استلمت رسالة تستدعيها إلى مكتب (هارتهل وبيري) في منطقة «وست إند» (لإطلاعها على شؤون تهمها، وذلك لأن السيد جون تيرنر قد توفي منذ ثلاثة أسابيع).

ولأن خبر وفاة ذلك الرجل، الذي أحبته رغم معرفتها القصيرة به، صدمها فقد حرصت على الحضور في الموعد المحدّد.

وكان لخبر ترك جون تيرنر ثروته لها وحدها، وقع انفجار قنبلة عليها.

قالت وكأنها تفكر بصوت مرتفع: «ولكن لماذا ترك ثروته لي؟».

www.elromancia.com

ـ أظن.. لأن السيد تيرنر ليس لديه أولاد...

وهذا صحيح، فجون لم يذكر أمامها قط أن لديه أسرة. وتابع السيد هارتهل برزانة: «أملاك موكلي تتضمن ثمن مبيع منزله اللندني، وقصراً صغيراً في فينيسيا إسمه «كاـ مالفازيا»، وقد فهمت أنه وزوجته عاشا سعيدين جداً فيه».

كانت نيكولا تعرف البيت اللندني، فقد أخبرها جون أنّ بيته معروض للبيع، قائلاً إنه كبير جداً وخالٍ، وهو لا يقصده إلا نادراً. لكنها لم تكن تعلم شيئاً عن (قصره الصغير في فينيسيا)، رغم علمها أن زوجته الراحلة صوفيا كانت إيطالية.

كل ما تمكنت نيكولا من قوله: «وهل مات هناك؟»

بدا الانزعاج على وجه السيد هارتهل لتعبيرها الفظ الصريح بكلمة «مات»، وهو الذي اعتاد استعمال تعابير أكثر لباقة مثل «توفي» أو «رحل» مثلاً، وقال: «لا. لقد أقفل قصر «كاـ مالفازيا» منذ رحيل زوجته منذ أربع سنوات. كان موكّلي ينجز عملاً في روما عندما فاجأته نوبة قلبية قاضية..».

تمنت نيكولا لو أن أحدهم كان برفقة جون حينذاك. بينما تابع المحامي كلامه: «لم يكن الأمر مفاجئاً تماماً، فقد كان مستعداً لذلك. أوصاني بأن أسلمك هذا المغلف بعد موته. أظنه يحتوي على مفاتيح قصره».

وناولها مغلفاً صغيراً سميكاً مختوماً يحمل اسمها وعنوان شقتها التي تشاركها فيها صديقتها ساندي.

ـ إذا أردت أن تعاينيه القصر، فيمكنني أن أؤمن لك الاتصال بمكتب المحامي السنيور مانسيني في فينيسيا، وهو المكتب الذي تتعامل الأسرة معه منذ سنوات. وإذا ما قررت بيعه، فيمكنه أيضاً أن يعرضه للبيع والقيام بما يتطلبه ذلك من إجراءات.

قالت نيكولا وقد بدا الذهول واضحاً على وجهها: «طبعاً سأكون بحاجة إلى اتخاذ بعض القرارات... بعد أن آخذ عطلة من العمل».

فقال المحامي، وهو ينهض واقفاً ليرافقها إلى الباب: «طبعاً، وإذا احتجت إلى أي خدمة، فاتصلي بي».

ـ شكراً للطفك سيد هارتهل.

وابتسمت له إبتسامة أضاءت عينيها الخضراوين، وأسبغت دفئاً على وجهها البيضاوي الشكل.

صافحها السيد هارتهل وهو يفكر في أنها رائعة الجمال حقاً، ومن المؤسف أن تكون هذه الشابة الصغيرة السن أرملة، حتى ولو كانت أرملة ثرية.

عندما دخلت نيكولا إلى شقتها، كانت ساندي، وهي فتاة مرحة، صغيرة الجسم، حمراء الشعر، بانتظارها، وكلّها لهفة لمعرفة ما حدث.

ـ لقد حضرت الشاي. تعالي أخبريني بكل ما حصل.

ورغم أن الفتاتين كانتا صديقتين، منذ بدأتا دراسة «إدارة الأعمال» في الجامعة معاً، وشريكتين في شقة واحدة منذ ثلاثة أعوام، إلا أنهما مختلفتان تماماً. فنيكولا انطوائية، في حين أنّ ساندي اجتماعية بطبعها.

حتى قبل وفاة زوجها في حادث سيارة مؤسف، كانت نيكولا امرأة هادئة متحفظة، امرأة تفضل أن تقف جانباً وتراقب الأمور. بينما كانت ساندي صريحة غير متحفظة، ولا تتردّد في الاختلاط بالناس.

ولهذا يبدو من غرائب الأمور أن تعمل ساندي من بيتها بصفتها «خبيرة في المعلوماتية»، حيث تجلس أمام شاشة الكمبيوتر، بينما تختلط نيكولا بالناس، فتضطر للسفر بصورة مستمرة، بحكم عملها كمنظمة مؤتمرات في مؤسسة «وست ليك لمعالجة صعوبات العمل».

سارت المرأتان معاً إلى المطبخ الصغير، وجلستا إلى المائدة حيث أخذت ساندي تسكب الشاي.

تناولت نيكولا فنجانها وهي تقول ببساطة: «لقد جعلني جون وريثته الوحيدة. ويبدو أنني سأصبح امرأة غنية».

أطلقت ساندي صفيراً طويلاً، بينما تابعت نيكولا: «عدا عن أسهم في

شركات عدة، وثمن بيع منزله في لندن، ترك لي قصراً صغيراً في فينيسيا».

ـ أنت تمزحين.

ـ لا. أنا لا أمزح.

ـ هل كنت تعلمين أن لديه منزلاً في فينيسيا؟

ـ لا. لم يذكر لي ذلك قط.

ـ هل أنت متأكدة من أنك لم تخطئي في فهم الأمر؟

ـ بل أنا واثقة. اسم القصر «كا ـ مالفازيا». وقد تسلمت مفاتيحه للتو.

أخرجت نيكولا المغلف من حقيبتها، ونزعت عنه الشريط اللاصق ثم أفرغت محتوياته التي كانت عبارة عن مجموعة من المفاتيح ورسالة.

وبينما أخذت ساندي تتفحص المفاتيح، فتحت نيكولا الرسالة التي كتبها بخطه الدقيق، الأنيق، ثم أخذت تقرأ:

«نيكولا يا عزيزتي، رغم أن معرفتنا ببعضنا البعض كانت قصيرة، إلا أنك كنت لي كالابنة التي لطالما تمنيتها، كما أن دفء عواطفك ولطفك كانا يعنيان لي الكثير.

«سوف تجدين في المغلف كيساً صغيراً فيه خاتم صوفيا. كنت أعلّق هذا الخاتم بسلسلة في عنقي منذ توفيت صوفيا، لكنني أشعر الآن بدنوّ أجلي ولهذا أودعته عند السيد هارتهل. إنه خاتم فريد غير عادي. كانت حبيبتي تلبسه على الدوام، منذ اليوم الأول لتعارفنا. وقد قالت لي مرة إن هذا الخاتم يجلب السعادة لمن يلبسه، وقد تحقّق هذا معها. ولهذا السبب، أريدك أن تلبسيه، وأنا مؤمن تماماً بأن صوفيا موافقة على هذا.

«رغم أننا كنا، نحن الاثنين، متزوجين من قبل، إلا أنها كانت حب حياتي، كما أنني، بحسب ما أعتقد، كنت حب حياتها. بقينا معاً خمس سنوات رائعة في غاية السعادة. لم يكن وقتاً طويلاً إلى حدٍ كاف... لكن ربما ما كان أي وقت، مهما طال، كافياً بالنسبة لنا.

«أما بالنسبة إليك، فأنا أعرف أن الوقت الذي أمضيته مع زوجك كان

قصيراً جداً. وأنت ما زلت صغيرة جداً على كل ذلك الحزن والألم اللذين عانيت منهما، كما أعلم جيداً أن كل من يفقد حبيباً غالياً، يحتاج إلى وقت للحداد. ولكن تذكري، يا عزيزتي، أنّ الإنسان يجب ألاّ يتمسك بالحداد إلى الأبد. وقد حان الوقت لكي تغيّري وضعك في الحياة. كوني سعيدة».

ناولت نيكولا ساندي الرسالة وهي تغالب دموعها. وأخذت الكيس الصغير المصنوع من الشامواه وفتحت سحّابه، ثم قلبته ونفضته على كفّها فانزلق منه خاتم رائع الجمال.

وأمسكت الفتاتان أنفاسهما.

كان الخاتم مصنوعاً بإتقان بالغ، ومرصّعاً بفصّين بيضاويين بلون أخضر لامع، وقد ثبّتا على قاعدة ذهبية.

قالت ساندي والرهبة تعلو وجهها: «لم أرَ في حياتي شيئاً كهذا! ماذا تراه يعني؟».

فقالت نيكولا بصوت غير ثابت: «يبدو كقناع ذهبي، والزمردتان الخضراوان فيه كالعينين».

ـ جرّبيه في إصبعك.

وضعت نيكولا الخاتم في إصبعها وقد تملكها شعور بأنها تقدم على فعل غريب مفزع.

بعد موت «جيف» نقص وزنها إلى حد أصبحت معه نحيلة جداً، لذا بدا الخاتم واسعاً في إصبعها.

قالت ساندي بحماسة: «حتى لو كان قطعة مجوهر عادية، إلا أنه خلاّب! هو أروع من أن يلبس عند الذهاب إلى السوبر ماركت، مثلاً».

ـ هذا صحيح. إنه يناسب مكاناً مثل ساحة «سان ماركو» في فينيسيا.

ـ هل ستضعينه في إصبعك؟

ـ أخاف حالياً من وضعه، لكنني سأحمله معي حتماً.

ـ أنت تتكلمين الإيطالية، أليس كذلك؟ ألم تذهبي قط إلى فينيسيا من قبل؟

- لا.

- ألا تحبين الذهاب إليها؟

فأجابت ببطء: «نعم، أحب ذلك. كنت أفكر في الأمر وأنا في طريقي إلى هنا. يحق لي بإجازة، وسأبقى هناك لفترة».

هتفت ساندي: «ما أروع هذا؟ أخيراً، كنت على وشك أن أفقد الأمل. فأنت لم تأخذي عطلة منذ وفاة جيف».

- لم يكن ثمة فائدة من ذلك. فالمكوث في الفندق مع أناس غرباء أمر لا يثير البهجة.

- لكنك الآن لست بحاجة إلى الإقامة في فندق، فلديك قصرك الخاص.

هزّت رأسها قليلاً: «ما زلت لا أصدّق تماماً».

وقطّبت بينما قالت ساندي باستغراب: «إني أعجب لماذا لم يذكر جون تيرنر قط أن لديه منزلاً في فينيسيا».

- ربما كان الحديث عنه يعيد إليه ذكريات كثيرة. فجون كان متعلقاً بزوجته، ولم يستطع نسيان حزنه لموتها. هذا أحد الأسباب التي جعلته يرهق نفسه في العمل، ويكثر من الأسفار...

وكانت نيكولا قد فعلت الشيء نفسه، لكنها لم تستطع أن تترك الألم والحزن خلفها. بل كانا يصحبانها في أسفارها... كأنهما مرافقان دائمان لا تستطيع التخلص منهما.

ورغم أنه لم يكن من عادتها اكتساب الأصدقاء بسهولة، إلا أنها وجون تيرنر، تعارفا وقربت بينهما الظروف والمعاناة المماثلة. فأصبحا صديقين حميمين بين ليلة وضحاها. لم يتساءلا قط عن أسباب هذه الصداقة الفورية بل تقبّلاها فقط كما حدثت. قالت نيكولا شاعرة بغصّة:

- رغم فارق السن بيننا، والذي يزيد عن ثلاثين عاماً، كان بيني وبينه الكثير من الشبه. كنت شديدة الولع به وسأفتقده كثيراً، ولكم أرغب في رؤية البيت الذي عاش فيه سعيداً مع زوجته.

فقالت ساندي بلهجة عملية: «حسناً، إنها فرصتك الآن».

- لماذا لا تأتين معي؟

- لا يمكنني القول إن الإغراء لا يتملكني، لكن لديّ الكثير من العمل. كما أن برينت يكره أن أسافر من دونه. فهو يعتقد أن النساء الإنكليزيات والرجال الإيطاليين يتبادلون الإعجاب في ما بينهم.. وهذا الأمر يجرّ إلى أمور أخرى قد تتسبب بورطة...

- أرجو ألاّ يحدث هذا معي!

فقالت ساندي ضاحكة: «ستكونين محظوظة جداً. والآن، كيف ستسافرين؟ بالطائرة كالعادة؟»

- لقد تعبت من السفر جواً حيث لا أرى شيئاً سوى المطار...

وبعزيمة مفاجئة وتصميم على التخلص من كل أشباح الماضي، قالت: «سأسافر بالسيارة».

كان جيف، الذي يكبرها بنحو ستة أشهر، قد علّمها القيادة وهي لا تزال في السابعة عشرة من عمرها. لكنها، ومنذ موته، لم تقد سيارة قط.

- أظن أن الطقس سيكون جيداً في أوائل حزيران. لهذا، أظنّني سأسلك طريقاً يمر بين المناظر الطبيعية، ثم أسير في رحلتي على مهل، فأتوقف ثلاث أو أربع ليالٍ في الطريق. فأنا متلهفة لرؤية «إسبراك».

قالت ساندي وهي تخفي دهشتها: «لا أحب أن أفسد عليك بهجتك، لكن لا بد لي من أن أذكّرك بأنك لا تملكين سيارة».

- يمكنني أن أستأجر واحدة.

- سمعتُ أن أجرة توقيف السيارات في فينيسيا مرتفعة جداً، لكنني لا أظنك ستهتمين لذلك. بالمناسبة، طالما أصبحت تملكين الآن الكثير من المال، أتوقع أن ترغبي في العيش في مكان أكثر فخامة من هذه الشقة.

ثم أضافت قبل أن تجيب نيكولا: «لا تظنيّ أنني أطردك من الشقة، لكن برينت متلهف للزواج».

- حسناً، أعلميني إذا أردتما قضاء شهر العسل في قصر...

قالت ساندي ببشاشة: «ما أجمل أن يكون لي أصدقاء أغنياء».

عندما تبلّغ السنيور مانسيني بعزم نيكولا، أبدى من اللّهفة في المساعدة ما جعلها تشعر بالحرج. ورغم أنها طمأنته إلى أن ذلك ليس ضرورياً، إلا أنه أصرّ بشهامة على أن يرشدها إلى أفضل الفنادق وأن يحجز لها بنفسه.

ولسبب ما، وقبل أن تسمع صوته، شعرت ساندي بالكراهية نحو هذا الرجل. لكن نيكولا لم تشأ أن تؤذي شعوره، فشكرته لنيّته الطيبة إلا أنها رفضت بلباقة.

* * *

آخر محطة لها قبل فينيسيا، كانت «إسبراك»، فقد وصلت إلى المدينة النمساوية الجميلة بعد الظهر.

كان السنيور مانسيني قد رتب أمر إقامتها في فندق «بريجنز والد»، وهو فندق عصري جميل.

أوقفت نيكولا سيارتها المستأجرة في الموقف الكائن تحت الأرض. تركت حقيبة ثيابها في صندوق السيارة، مكتفية بحقيبة صغيرة تحوي أغراضاً لليلة واحدة واستقلت المصعد إلى الردهة الأنيقة.

كانت الردهة في هذا الوقت من النهار خالية إلا من موظفة الاستقبال ورجل أصلع، غليظ العنق، طويل الوجه، يجلس بالقرب من النافذة. رفع الرجل بصره إليها حين دخولها، وبعد أن تأملها للحظة عاد إلى قراءة صحيفته. أنهت نيكولا الإجراءات مع الموظفة وتناولت منها مفتاح غرفتها.

كانت هذه زيارتها الأولى لعاصمة «التايرول» فصمّمت على أن تتعرف على أكبر عدد من الأماكن فيها وذلك بقدر ما تسمح لها إقامتها القصيرة.

اغتسلت وارتدت ثوباً قطنياً برتقالي اللون وسترة، ونزلت إلى الردهة في الطابق السفلي. فرأت ذلك الرجل الطويل الوجه في مكانه يقرأ صحيفته.

أخذت نيكولا خريطة للمدينة واستدارت لتخرج، وإذا بالرجل يترك

الصحيفة بعد أن تسمّرت نظرته عليها ليتحدث عبر هاتفه الخلوي. تقابلت نظراتهما لحظة ثم حوّل الرجل نظره بعيداً وكأنه شعر بالحرج.

خرجت نيكولا إلى الشارع المشمس والخريطة في يدها وبعد أن حددت طريقها انطلقت في رحلتها الاستكشافية. كان هناك العديد من العربات التي تجرها الجياد، تعرض خدماتها على السياح، لكنها قررت أن تتمشى، بعد أن أمضت نهارها في قيادة السيارة.

كانت السماء صافية والحرارة مرتفعة فثنت كمّي سترتها إلى الأعلى.

وبعد أن ألقت نظرة على النهر المتدفّق ذي اللون الأخضر، تابعت طريقها باتجاه الأحياء القديمة من المدينة.

أخذت نيكولا تسير في الشوارع الضيّقة المرصوفة بالبلاط. رجعت إلى الخلف قليلاً لتتأمل بإعجاب أحد المباني الملوّنة، وإذا بكعب حذائها المرتفع ينزلق في أحد شقوق البلاط ويعلق فيه، فعجزت عن التحرّك.

وبينما كانت تناضل لكي تنزعه، سمعت وقع حوافر جياد، تقترب منها بسرعة. وما هي إلا لحظة، حتى كانت ذراعان قويتان تنقلانها إلى الجانب الآخر من الطريق، بينما مرّت العربة التي تجرّها الجياد من دون أن تصيبها بأذى.

مرّت برهة قبل أن تدرك نيكولا أنها ترتجف وقد ألقت برأسها إلى كتف قوية، فشعرت وكأنها تضع خدها فوق مخدة من حرير، بينما ملأت أنفها رائحة كولونيا رجالية.

تمالكت نفسها، ورفعت رأسها، وقالت بصوت مرتجف: «شكراً. أنا شاكرة جداً.. صدّقني».

ـ كان الأمر مفاجئاً... لكنني مسرور لأني كنت حاضراً لتقديم المعونة.

جاء صوت منقذها جذاباً، ولغته الإنكليزية متقنة لا يشوبها سوى لكنة خفيفة. أما الرجل نفسه فكان وسيماً أسمر اللون. مجرد النظر إلى وجهه جعل نيكولا تحبس أنفاسها، فهو يشبه زوجها الراحل، باستثناء لون عينيه.

كانت عينا جيف زرقاوين دافئتين غائمتين، فيما عينا هذا الرجل رماديتان صافيتان باردتان. أمّا شعره فأسود اللون فاحم، وقصير إلى حد يكبح ميله إلى التجعّد. بدا وجهه وسيماً، صلب الملامح، وأنفه مستقيماً وفمه حازماً.

راحت تحدّق إليه وهي مسمّرة في مكانها، فقال الرجل: «سأجلب لك حذاءك».

أجلسها الرجل على الأرض، بحيث استطاعت أن تستند إلى جدار مغطى بالجصّ، ثم عاد إلى الطريق.

كان طويلاً، عريض الكتفين يسير برشاقة رجولية، ويرتدي ملابس عادية هي عبارة عن بنطلون كاكي اللون وقميص مفتوح عند العنق، ما يدل على أنه في عطلة.

لكنها لاحظت جانباً غامضاً، غير محدّد في شخصيته... ربما نوع من الثقة؟ أو من السلطة؟.

أخرج الحذاء من الشق وأعاده إليها قائلاً: «عدا عن تقشّر بسيط في أسفل الكعب، لم يصبه أي تلف».

جلس القرفصاء ليساعدها على انتعال حذائها، ثم وقف بطوله الذي يزيد عن ستة أقدام، ونظر إلى وجهها البيضاوي، وبشرتها النقية قائلاً: «ما زلت ترتجفين..».

وكان هذا صحيحاً، لكن ليس للسبب الذي تصوّره.

ـ ما أنت بحاجة إليه الآن هو الدواء الشافي من الأمراض كلها: كوب من الشاي الجيد.

ثم أمسك بمرفقها، وقادها إلى مطعم صغير. أدّى بهما ممرّ تعلوه قنطرة إلى فناء داخلي صغير مشمس، فيه ثلاث أو أربع موائد غير مشغولة، تعلوها أغطية بيضاء وحمراء اللون. سألها الرجل: «ربما تفضلين الجلوس في الداخل، لأن بشرتك شديدة البياض؟»

فهزّت نيكولا رأسها: «أنا أعشق الشمس، وبشرتي تسمرّ بسهولة».

ـ فلنجلس في الهواء الطلق إذن.

ساعدها على خلع سترتها ثم علّقها على ظهر كرسيها. وسرعان ما تقدم منهما نادل بإبريق من الماء المثلج وكأسين. فسألها مرافقها: «أتريدين الشاي فقط أم ترغبين في تذوق الكعك اللذيذ الذي يصنعونه هنا؟».

ـ تناولت الغداء متأخرة، ولهذا أريد شاياً مع الليمون فقط. شكراً.

أعطى الرجل أوامره للنادل بلغة ألمانية طليقة، مع أن نيكولا شعرت بأنها ليست لغته الأم.

وعندما ذهب النادل، سألته: «يبدو أنك تعرف هذا المطعم جيداً؟».

ـ نعم، فأنا آكل هنا من وقت إلى آخر.

وتأملها قليلاً ثم عاد يقول: «ها أنت تستعيدين لونك الطبيعي. أتشعرين بتحسن؟»

ـ نعم، كثيراً.

ـ هل أنت في إجازة؟

ـ نعم.

ـ هل تزورين إسبراك لأوّل مرة؟

ـ نعم، سأمضي فيها ليلة واحدة فقط، فأنا في طريقي إلى فينيسيا.

قالت هذا كارهة، فعاد يسألها: «أنت قادمة من إنكلترا؟»

ـ نعم، وأنا أقود السيارة بنفسي سالكة الطريق الذي تحيط به المناظر الطبيعية.

ـ السفر في طريق «برينير باس» أمر رائع.

ـ أنا واثقة من أنه كذلك.

لكنها في الواقع، لم تعد تشعر بالحماس نفسه الذي كانت تشعر به سابقاً.

وصل الشاي مصحوباً بمكعبات السكر والليمون. فأشار إلى الصينية مقترحاً: «ربما تفضلين سكب الشاي بنفسك؟»

ـ طبعاً. أتريد ليموناً وسكراً؟

ـ سكراً فقط من فضلك.

ملأت كوبيّ الشاي وناولته أحدهما. إلا أنها لم تكن تشعر بالارتياح لأنه يتأملها، فأسقطت فصّاً من الليمون في فنجان الشاي، وتطاير رذاذ الشاي على ثوبها.

وسرعان ما وقف الرجل وأخرج من جيبه منديلاً ناصع البياض، غمس طرفه في إبريق الماء وانحنى فوقها يمسح بقع الشاي عن ثوبها. ورغم أن لمساته كانت خفيفة ومحايدة، إلا أن كل عصب في جسدها تجاوب معه، وشعرت بوجهها يتوهج.

تراجع إلى الخلف قليلاً، ثم أخذ يتأملها وهو يحني رأسه جانباً: «بقي بقعة أو اثنتان لكنهما خفيفتان».

فقالت بصوت مخنوق: «شكراً».

ردّ برزانة: «بكل سرور».

تمالكت نفسها، غير واثقة إن كان يسخر منها أم لا. وحاولت أن تحدّثه، فسألته وهي تلهث قليلاً: «هل تعيش في إسبراك؟»

ـ لا، أنا هنا في عمل.

ثم أضاف وعيناه تطوفان على وجهها: «أنا أعيش في فينيسيا».

ـ آه...

وخفق قلبها من دون سبب. فأضاف متعمّداً، وهو ما زال يراقبها، وكأنه يتوقع منها ردّ فعل ما: «اسمي دومينيك إيرفين لوريدان».

ـ هل أنت إيطالي؟

ـ أمي إيطالية وأبي أميركي.

هذا يفسّر لكنته الخفيفة الآسرة، وحركات يديه القوية وهو يتحدث.

ـ وأظنك إنكليزية؟

ـ نعم. أنا نيكولا ويتني.

نظر إلى خاتم الزواج في إصبعها: «أظنك متزوجة؟»

ـ نعم... لا... حسناً...

فقال رافعاً حاجبيه: «يبدو أنك لست واثقة تماماً».

فقالت متلعثمة: «أنا... أنا أرملة».

لم تكن نيكولا عادة تصرح بأنها أرملة. ربما خوفاً من العطف أو الرثاء، أو ربما لأنها تخشى النطق بذلك بصوت مسموع. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تعترف فيها بترمّلها طوعاً.

ـ أنت أصغر من أن تكوني أرملة.

ـ أنا في الخامسة والعشرين.

ـ متى مات زوجك؟

ـ منذ ثلاث سنوات.

ـ وما زلت تلبسين الخاتم؟

كانت لا تزال تشعر بأنها متزوجة.

وعندما لم تجبه، عاد يسأل: «هل مات في حادث؟»

ولأن سؤاله كان واقعياً ومن دون مشاعر، أجابت بثبات: «نعم. قُتل في حادث سيارة».

ـ أنت إذن تعيشين وحدك؟

ـ بل أعيش مع صديقة لي تدعى ساندي.

ـ ألا تشاركك صديقتك الإجازة؟

ـ لا. أنا وحدي...

ما الذي يجعلها تخبر رجلاً غريباً بكل هذه الأمور؟ أسرعت تقول بارتباك: «كنا زميلتين في الكلية. وبعد موت زوجي جيف، دعتني لمشاركتها شقتها. كنت أودّ أن تنتقل هي إلى شقتي، لكنها تعمل «كخبيرة في المعلوماتية» ولديها الكثير من العمل».

سألها بشكل عفوي: «هل عملك يتصل بعملها؟»

ـ لا. أنا أعمل مع مؤسسة «وست ليك لمعالجة صعوبات العمل» كمنظمة مؤتمرات.

ـ إنه عمل هام ورائع. هل أنت ماهرة فيه؟

ـ نعم.

www.elromancia.com

بدا في عينيه الاستحسان لجوابها، وعاد يسألها: «ما هي المؤهلات المطلوبة لعمل كهذا عدا عن المظهر؟»

بدا في صوته شيء ما، أم لعلها تتخيل ذلك؟

أجابت باختصار: «ما من مؤهلات مطلوبة لمثل هذا العمل».

ـ إلى ماذا تحتاجين إذن؟

ـ إطلاع على سير الأعمال. إستعداد طبيعي للحكم بشكل صائب على ما يريده كل عميل، ونوع من الإرتجال. واتقان أي لغة أخرى مفيد أيضاً.

ـ وأنت؟ هل تتحدثين لغة أخرى؟

ـ نعم.

ـ استمري.

قال هذا بنعومة فهزّت كتفيها وأردفت: «عمل شاق: تنظيم المكان وإعداده، تأمين التسهيلات لإقامة المؤتمر، التزود بالطعام والشراب، والحرص على أن يكون الجميع مسروراً».

ـ أنا واثق من أنك تحسنين القيام بذلك.

هذه المرّة لم يتملكها أي شك في أنّ لهجته منفعلة، فعضّت شفتها ولم تجب.

ـ وأين تنظمين هذه المؤتمرات؟

ـ في أنحاء العالم... طوكيو... سيدني، أتلانتا، كيبك، باريس، لندن...

ـ هذا يعني كثيراً من الأسفار.

ـ هذا صحيح.

ـ وفرصة جيدة للتعرف إلى الناس. أعني رجال الأعمال، مثلاً.

تملكها القلق بسبب هذه الأسئلة وشعرت بالتوتّر، فأجابت بارتباك: «أنا لا أتعرف عادة إلاّ إلى الذين يعقدون المؤتمر حين تطرأ صعوبات في العمل».

ـ وأنت طبعاً تحرصين على تسهيلها؟

ـ قدر الإمكان.

يبدو أنه شعر بضيقها، فتنهّد، ثم هزّ رأسه بأسف وهو يستند إلى الخلف في كرسيه: «سامحيني. أرجو أن تتقبلي اعتذاري».

ـ لماذا الاعتذار؟

كشّر هازلاً بشكل ساحر: «ما كان لي أن أزعجك بأسئلتي عن حياتك وعملك. فأنت في إجازة».

تبدّد شعورها بالتوتر وكأنه لم يكن. ولعله من فعل مخيلتها: هل السبب في ذلك شبهه الشديد بجيف؟ أم امتناعها طوال ثلاث سنوات عن إقامة أيّ علاقات شخصية، ما جعلها تفقد قدرتها على الاختلاط بالناس؟

واخترق صوته الواضح المنخفض أفكارها: «كيف ستمضين بقية نهارك في إسبراك؟»

ـ في التفرج على ما يمكن من معالم المدينة.

ـ وحدك؟

ـ حسناً، نعم.

ـ بما أن عملي قد انتهى بنجاح، وأنا أيضاً وحدي، فهل تسمحين لي بمرافقتك في هذه الجولة؟

أخذ قلبها يخفق بسرعة وهي تفكر في الرد. إنه رجل آسر، يخلب اللب... ليس فقط لأنه يشبه زوجها الراحل جيف، إنما لسبب آخر لم تستطع فهمه. ورغم أن الوقت الذي أمضته بصحبته لم يكن مريحاً تماماً... بسبب الضيق الذي شعرت به أمام جاذبيته.. إلاّ أنها أدركت أنها لا تريد لهذا أن ينتهي.

حاولت نيكولا إخفاء انفعالها الذي جعلها تشعر فجأة وكأنها فتاة صغيرة، فقالت بحذر: «شكراً... سيكون ذلك جميلاً جداً».

لم تكن واثقة ما إذا وجد تحفظها مسلياً أو إذا سرّته موافقتها على اقتراحه، لكنه ابتسم مظهراً أسنانه البيضاء المرصوفة بانتظام. وهذه هي المرة الأولى التي تراه فيها مبتسماً، ما أضفى عليه سحراً بالغاً.

www.elromancia.com

ألقى بعض النقود على المائدة، ثم قال: «فلنذهب إذن».

حملت سترتها وحقيبتها، ثم غادرا الفناء المشمس ويده تحيط بخصرها.

تلك اللمسة العفوية جعلت قلبها يخفق كما لم يفعل من قبل. كانت قد أحبت جيف من أعماقها، لكنهما تربيا معاً، فشكّل جزءاً من حياتها، وكانت تشعر نحوه بالاهتمام والإلفة والحنان... إحساسٌ بالدفء والأمان أكثر منه انفعالٌ جنوني.

ـ «إسبراك» مدينة تجمع القديم والحديث، ومعالمها متداخلة مع بعضها البعض.

ـ بما أن وقتي محدود، سأكتفي بمشاهدة الأماكن الأثرية.

ـ إذن، أقترح أن نبدأ بقصر «هومبورغ» وكنيسة «هوفكيرش»... هذا إذا لم يسبق لك رؤيتهما..؟

ـ لا. لم أرهما من قبل.

قالت هذا بعد أن شعرت أنه لم يعد يهمها ما تراه، فوجودها مع هذا الرجل الرقيق هو كل ما يهمها.

ـ وبعد ذلك سآخذك إلى «سكلوس لينز» للعشاء.

سلخت عينيها عن عينيه ثم سألته، شاعرة بوجهها يتوهّج: «سكلوس لينز»؟»

ـ إنه مطعم يعود إلى القرن السادس عشر، تاريخه مضطرب وعنيف للغاية. كان في الماضي قلعة حصينة، وهو الآن مطعم من الدرجة الأولى. إن منظر المدينة رائع من الشرفة التي تبدو معلقة في الفضاء.

ـ يبدو هذا بديعاً للغاية.

ونظرت إلى البقعة الباهتة التي ما زالت بادية على ثوبها، ثم أضافت: «لكنني بحاجة إلى تغيير ثوبي أولاً».

ـ وأنا أيضاً، أين تقيمين؟

ـ في فندق «بريجنز والد».

ـ يا لها من مصادفة.

ـ أتعني أنك أنت أيضاً تنزل هناك؟

ـ في الغرفة رقم ٥٤.

فقالت وهي تكاد لا تصدّق ذلك: «أنا في الغرفة رقم ٥٦».

ـ حسناً... حسناً... يبدو أن المصادفة كطيور السنونو، تأتي أزواجاً أزواجاً...

أمضت نيكولا بقية النهار مفعمة بالحماسة، فهي لم تعرف هذا النوع من السعادة منذ أكثر من ثلاث سنوات.

وجدت دومينيك لوريدان مرافقاً ممتازاً، سهل المعشر. وقد تبيّن أنه يعرف المدينة جيداً، ويقدّر الجمال.

عندما انتهيا أخيراً من التسكّع في طرقات المدينة القديمة المبلّطة، وشاهدا معظم ما يستحق المشاهدة، إستقلا عربة يجرّها جوادان، عائدين إلى الفندق وقد علاهما الغبار. وعند باب غرفتها سألها: «كم تحتاجين من الوقت؟ ساعة؟ نصف ساعة؟»

وبما أنها لم تتوقع أن ترتدي ملابس خاصة للعشاء، كان عليها أن تعود إلى حقيبة ملابسها التي تركتها في سيارتها. فأجابت بسرعة: «حتى أستحمّ وأغير ملابسي».

شعرت أنّ هذه الفترة رغم قصرها ستكون طويلة لأنه سيبتعد عنها.

ابتسم لها: «هذا حسن. سأقرع بابك بعد نصف ساعة».

وعندما رفعت بصرها إليه، لامس خدها بإصبعه، فوقفت مسمّرة في مكانها. ومع أن لمسته كانت خفيفة، إلا أنها أوهنت ركبتيها.

وضعت يدها على خدها ذاهلة، وأخذت تنظر إليه وهو يتوارى في غرفته، ثم دخلت غرفتها كالمسحورة وأغلقت بابها برفق.

* * *

٢ ـ وقفة بين الماضي والحاضر

وقفت نيكولا لحظة قصيرة في مكانها، شاعرة مرّة أخرى بتلك اللمسة السريعة للغاية. لكنها مالبثت أن تمالكت نفسها وتحرّكت لتحضر مفاتيح سيارتها.

عبست وهي تنظر إلى المكان الذي وضعت فيه المفاتيح، ثم نظرت حولها. وبدلاً من أن تجدها في الدرج حيث تركتها، إذا بها تجدها على منضدة الزينة.

أيمكن أن تكون مخطئة؟ هل تركت المفاتيح على المنضدة بدلاً من وضعها في الدرج؟ أم أن إحدى خادمات الغرف دخلت ونقلتها من مكانها؟

على كل حال، المهم أنها ما زالت موجودة. وطالما أن السيارة لم تُسرق، فليس ثمة مشكلة.

تسرق؟.

هذه الفكرة جعلت نيكولا تتفحص الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معها. نظرة سريعة على محتوياتها أظهرت أن جواز سفرها ونقودها لم تُمس، وكذلك صندوق بجوهرات جدتها الذي يحتوي على معظم مدّخراتها النفيسة.

حبست أنفاسها وفتحته. بدا وكأن كل شيء في مكانه: عقد اللؤلؤ الصغير الذي اشتراه لها جيف كهدية زفاف، سلسلة جدتها الذهبية، مفاتيح بيت جون في فينيسيا...

تنهدّت بارتياح ثم أعادت الصندوق إلى مكانه. والتقطت مفاتيح

السيارة، ثم استقلت المصعد إلى موقف السيارات حيث أسرعت إلى سيارتها الزرقاء. حاولت أن ترفع غطاء الصندوق الخلفي، لكنه لم يتزحزح.

ضغطة أخرى من المفتاح عادت ففتحته، وهذا يعني أنه لم يكن مقفلاً من قبل.

كانت متأكدة تماماً من أنها أقفلته عند وصولها. ولكن هل هذا صحيح؟

فتحت غطاء الصندوق، متوقعة أن تكون حقيبتها مفقودة، إلا أنها وجدتها هناك، كما تركتها بالضبط.

لا، ليس بالضبط. وكأنما أقفلها أحدهم بسرعة، فعلقت قطعة قماش صغيرة في السحاب.

فتحت الحقيبة ونظرت إلى محتوياتها. كل شيء ما زال كما هو ما عدا تلك القطعة الصغيرة من الساتان العاجي اللون العالقة بالسحاب.

هل لهفتها للانطلاق ذلك الصباح، جعلتها تسرع في حزم أمتعتها، ما جعل السحاب يطبق على طرف قميص نومها؟

ولكن، أما كانت لتلحظ الأمر؟

ما من تفسير لهذا سوى إهمالها. ومع ذلك... لا بد من تفسير منطقي لحصول هذه الأمور الثلاثة معاً: إنتقال المفاتيح من مكانها، عدم إقفال صندوق السيارة، والقماش العالق بالسحاب. لكن، وبعد كثير من التفكير، لم تجد تفسيراً للأمر.

إذا كان شخص ما قد دخل غرفتها ووجد المفاتيح، وتكلّف عناء فتح السيارة وتفتيش حقيبتها، أما كان سيأخذ كل ما يستحق السرقة؟ بما في ذلك السيارة؟

وبدلاً من ذلك، لم يُفقد شيء، والمفاتيح ما زالت هناك. هذا يعني أن الأمر كله مجرد مصادفة غريبة.

والمصادفات تحدث. فنزول دومينيك لوريدان في الفندق نفسه وفي غرفة بجانب غرفتها هو أفضل برهان على ذلك.

وعادت أفكارها إلى دومينيك وإلى الأمسية التي تنتظرها، فرفعت حقيبة ثيابها، وأقفلت السيارة وعادت مسرعة إلى المصعد.

بعد أن استحمت في وقت قياسي، ارتدت ثوباً من الشيفون الرمادي كانت ساندي قد أصرت عليها لتشتريه.

بدا ثوبها رومنسياً بتنورته الطويلة والشال المتناسب معه. نفضت الشال المبطّن بقماش قرمزي اللون، وترددت قليلاً، لكنها تذكرت ما قالته ساندي، عندما أبدت تردّدها إزاء هذا اللون، حيث صاحت بها: «آه، لا يمكنك أن تستمري في ارتداء ثياب الأرامل الكريهة إلى الأبد».

وعندئذ قرّرت أن تشتريه.

وضعت الثوب على كرسي مع حقيبة يدها الصغيرة، ثم وقفت أمام المرآة لترفع شعرها الأشقر الكث.

عندما كومت شعرها فوق رأسها وأخذت تثبته بالدبابيس، وقعت عيناها على خاتم زواجها.

أنهت مهمتها، ثم أخذت تتأمل ذلك الخاتم. عندما مات جيف لم يكن قد مرّ على زواجهما سنة، ما يعني أنها عاشت كأرملة مدة أطول بكثير مما عاشت كزوجة.

تذكرت ما قاله جون في رسالته، فرأت أنه ربما حان الوقت لترك الماضي خلفها.

خلعت الخاتم، ثم وضعته بعناية مع مدخراتها الأخرى. شعرت برغبة في أن تبدو في أجمل مظهر، وذلك لأول مرة منذ ثلاث سنوات. والتقطت أدوات التجميل، ثم عادت إلى المرآة.

بحاجبيها الداكنين وأهدابها الطويلة، وبشرتها النقية، لم تكن بحاجة إلاّ إلى القليل من الزينة. بعض البودرة على أنفها المستقيم الصغير، ولمسة من الظل الأخضر فوق عينيها، ولون خفيف باهت على شفتيها، وإذا بها جاهزة.

طرقة على الباب جعلتها تختطف حقيبة السهرة والشال ثم تفتح الباب.

كان دومينيك لوريدان ينتظر، وقد بدا رائعاً للغاية في بذلة السهرة السوداء وربطة العنق الملائمة.

أخذ يتأملها من رأسها إلى قدميها، ثم يعيد تأملها من جديد، ما جعلها ترتجف بشكل غريب، قبل أن يقول برزانة: «أنت حقاً أجمل امرأة رأيتها في حياتي».

ساورها للحظة إحساس غريب بأنه لم يقصد المجاملة بكلامه هذا.

إلا أنه أمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه. هذه الالتفاتة الشاعرية الصغيرة، والابتسامة التي رافقتها، محت ذلك الإحساس كما يمحو موج البحر آثار الأقدام عن الرمال.

وبادلته نيكولا الابتسام: «آسفة لأنني نسيت أن أشكرك على رفقتك خلال النهار الجميل».

أخذ منها الشال ووضعه على كتفيها ثم قدم لها ذراعه: «حقاً؟ سوف تكون الأمسية إذاً أفضل».

كانت سيارته الرياضية البيضاء المكشوفة تنتظر في موقف السيارات. وبعد دقائق، خرجا من المدينة. بدا الجوّ دافئاً مع أن الشمس قد غابت، وكان مقعداهما المنخفضان يوفران لهما الحماية من الريح. وسرعان ما راحت السيارة تسير بثبات، بين المناظر التي تتغير باستمرار . . . وأخيراً، رأت قصراً مشيّداً عند سفح الجبال الرائعة.

قال دومينيك: «مطعم «سكلوس ليتز»».

فقالت نيكولا بإعجاب: «كأنه صورة في كتاب».

ـ يسرني أنه أعجبك.

قال هذا بوقار وهو يتابع القيادة في الطريق الملتوي، إلى أن سلكا طريقاً تعلوه قناطر يؤدي إلى فناء فسيح تحيط به أعمدة تحمل مصابيح الإنارة.

ساعد نيكولا على الخروج من السيارة، ثم ناول المفاتيح إلى المسؤول عن السيارات.

كان الهواء الجبلي بارداً، منعشاً، ونقياً، وراحت نيكولا تجيل بصرها في

الجدران الحجرية العالية. وإذ رآها دومينيك ترتجف قليلاً، تقدم ليرفع شالها على كتفيها.

ـ شكراً.

قالت هذا باسمة، وقد سرت بهذا التدليل والاهتمام... إنه شعور لم تنعم به منذ وقت طويل.

عند المدخل، حياهما رجل أشقر متين البنية. قال بلغة إنكليزية واضحة اللكنة: «مساء الخير يا دومينيك. جميل أن نراك مرة أخرى. مرحباً بك يا سيدة ويتني في مطعم سكلوس لينز. هناك مائدة على الشرفة حسب طلبكما».

ـ شكراً يا فرانز.

سار مضيفهما أمامهما إلى نهاية القاعة، عبر غرفة طعام مكسوة بالسجاد. كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحان موزارت، بينما جلس الزبائن المتأنقون في مجموعات. وفيما هما يسيران، لاحظت نيكولا أن عدداً من النساء يختلسن النظر إلى دومينيك، ثم ينظرن إليها بحسد. وعندما وصلا إلى سلّم حجري عالٍ، قال فرانز: «أرجو أن تحاذرا، فالدرجات قديمة متآكلة في بعض الأماكن».

أدى بهما السلم إلى شرفة مكشوفة، وضعت فيها موائد عدة متباعدة عن بعضها البعض.

قال دومينيك: «الجوّ هنا أنقى».

فهمت نيكولا من ابتسامته أنه لم يكن يعني الجو حقاً. وجلسا إلى مائدة يتوسطها إناء مليء بالأزهار اليانعة. أخذت تحدّق إلى مناظر إسبراك الخلاّبة التي تمتد في الوادي الفسيح، وقالت: «هذا المشهد يستحق العناء».

ـ ستجدين المشهد أجمل عندما تتألق أنوار المدينة.

عندما راحا يتناولان الطعام، رأت نيكولا أنه على صواب. ففي عتمة الغسق القاتم الزرقة، أحالت الأنوار المتألقة الوادي إلى حكاية من حكايات

الجن. بينما بدا القصر نفسه، بفوانيسه المدلاة على الشرفة، ومصابيحه المشتعلة في الفناء، وكأنه في القرون الوسطى.

استحوذ عليها سحر الجلسة، هذا السحر المتأتي عن مرافقها أكثر منه عن المكان.

أثناء تناولهما الطعام، كانت أحاديثه بعيدة عن كل ما هو شخصي. ولهذا دهشت عندما مدّ يده، وأمسك بيدها اليسرى وسألها: «أراك خلعت خاتمك».

ـ نعم.

ـ لماذا؟

فتلعثمت وقد جعلها سؤاله ولمسته معاً، ترتجف: «لا أدري بالضبط. بدا لي الأمر مناسباً».

شيء ما في نظرته جعلها تستمر في الشرح: «أدركت فجأة أنني عشت كأرملة أكثر مما عشت كزوجة».

ترك يدها وسألها: «كم بقيت متزوجة؟».

ـ أقل من عام...

سحر المكان وتأثيره فيها جعلا لسانها ينطلق بالكلام. ووجدت نفسها تفتح قلبها لهذا الغريب الرائع بطريقة ما كانت لتستطيعها مع أي شخص آخر ما عدا جون.

ـ أقمنا أنا وجيف، عرساً تقليدياً عندما بلغت الواحدة والعشرين.

ـ هل عرفتما بعضكما طويلاً؟

ـ في الواقع، طوال حياتنا...

رأته يقطب قليلاً، فعادت تفسّر له الأمر: «والدا جيف كانا والديّ بالتبني أيضاً، فقد كانا صديقين لجدتي واعتنيا بي بعد أن ماتت».

ـ كم كان عمرك حينذاك؟

ـ خمسة أعوام.

ـ وعمر زوجك؟

www.elromancia.com

ـ كان أكبر مني بأشهر قليلة، ووحيد أبويه.

ـ هل حاولا أن يتبنياك رسمياً؟

ـ أظنهما كانا يريدان ذلك.

ـ وماذا بالنسبة لوالديك؟

ـ لم أعرفهما قط. ذات يوم، سألت جدتي لما ليس لديّ والدين، فأجلستني في حضنها وقالت لي إن والديّ رحلا بعيداً، فاعتقدت أن ذلك يعني أنهما ذهبا الجنة. عندما بلغت السادسة عشرة، رأى والداي بالتبني أنني أصبحت كبيرة بما يكفي لأعلم الحقيقة. فأخبراني أن أمي تزوجت وهي في السادسة عشرة من عمرها، من دون موافقة جدتي. لكن أبي هجرها عندما علم أنها حامل، ما جعلها تكره حملها وفكرة الأمومة. وعندما ولدت تركتني في رعاية جدتي، ولحقت بأبي. واختفى كلاهما منذ ذلك الوقت.

ـ هل كانت جدتك مسنّة حين ماتت؟

ـ كانت في منتصف الخمسين من عمرها.

مرّر دومينيك أصابعه على ذقنه مفكراً، وقال: «وهكذا عشتما أنت وزوجك مع الوالدين نفسيهما، كأخوين».

أجابت ببعض الضيق: «كنا دوماً على علاقة حميمة، وكنا نمضي معظم أوقاتنا معاً. حتى أننا ذهبنا إلى المدرسة نفسها، إلا أننا لم نتشاجر أو نتجادل قط... لا أتذكر قط أن وقتاً مرّ عليّ لم أكن أحب فيه جيف».

وابتسمت بمحبة وهي تضيف: «أخبرني مرّة أنه أحبني منذ كنت طفلة هزيلة في الخامسة».

ـ ألم يكن أصدقاؤك الحميمون يرون عدم شجاركما أمراً غريباً؟

ـ لم يكن لي أصدقاء حميمون عدا جيف، إلى أن ذهبت إلى الكلية. قبل ذلك، لم يشجعنا والدانا على الاختلاط بغيرنا من الأولاد. في الحقيقة، لم نكن نشعر بأننا بحاجة إلى شخص آخر.

ـ وماذا بعد أن أصبحتما راشدين؟

ـ أتعني هل بقينا صديقين؟

ـ أعني متى أصبحتما حبيبين؟

ـ اقترح جيف أن نتزوج حالما بلغت الثامنة عشرة، وقررنا أن نصارح والدينا بما نريده. فكان رأيهما أن ننتظر حتى ننهي دراستنا، لنتأكد من عدم اقترافنا غلطة، عندئذ سيباركاننا ويتكفلان بنفقات العرس وملحقاته كافة.

رأت التعبير الذي بدا على وجه دومينيك، فاعترفت قائلة: «لا بد أن هذا يبدو رجعياً إلى حد بعيد، لكننا تربينا على احترام إرادتهما، كما أن العيش تحت سقفهما يعني أن نقبل شروطهما. كما كانا في منتهى الطيبة معي، فلم أشأ أن أقابل ذلك بالجحود. وأخيراً، وعدناهما بأن ننتظر».

فقال «ومن المؤكد أن هذا الوعد أصبح منسياً حالما انتقلت للعيش في بيت الطلبة».

ـ كانت الكلية في آخر الشارع الذي نسكن فيه، ولهذا رأينا أنّ من الأنسب البقاء في المنزل.

لاحت على شفتي دومينيك شبه ابتسامة جعلتها تشعر بالانزعاج، فقالت مدافعة: «هذا ما أراده والدانا».

ـ هذا ما ظننته.

وقبل أن تجيب، تابع يقول برفق: «وهكذا أنهيت دراستك وتزوجت في الكنيسة... وماذا بعد ذلك؟».

وإذ لم تكن معتادة على الكذب، أجابت بصراحة: «انتقلت إلى غرفة جيف».

ـ ألم تشعري، وأنت تحت سقف والديك، بنوع من الكبت؟

كانت قد شعرت بذلك فعلاً، إلا أنها قالت بشيء من المدافعة: «تخرجنا، بدرجة الشرف، جيف في مجال هندسة الديكور، وأنا في اللغات المعاصرة وإدارة الأعمال... لكن لم يستطع أي منا أن يحصل على وظيفة... على أي حال، أراد والدانا أن نبقى معهما إلى أن نتمكن من شراء منزل خاص بنا، ووافق جيف...».

ـ لا بد أن ذلك كان جافاً وغير مثير.

كان صوته غاضباً تقريباً وهو يقول: «يبدو ذلك وكأنه مدمر للروح».

توهّج وجه نيكولا بشكل مؤلم، فقال يعتذر: «آسف، ما كان لي أن أبدي ملاحظة كهذه».

فقالت بقدر ما أمكنها من مرح: «لا بأس. لم يكن الأمر سيئاً إلى هذا الحد. وقد أصبحنا، أنا وجيف، معاً...».

ثم أضافت بكآبة: «مع أنه كان من الأفضل لو انتقلنا إلى منزل خاص بنا...».

ـ وهكذا لم تفلحا قط في الانتقال؟

فهزّت رأسها: «نجحت في الحصول على وظيفة في أحد المكاتب، لكن جيف لم يكن محظوظاً. وكنا ما زلنا نحاول أن نوفر ثمن البيت عندما وقع حادث السيارة...».

ـ قلت إنك ذهبت بعد الحادث لتعيشي مع صديقتك ساندي.

ـ نعم.

ـ يدهشني أنك لم تبقي في البيت.

ـ لقد قُتل والدانا في الحادث نفسه.

ـ وهكذا بقيت وحيدة.

ـ كانت ساندي حنوناً للغاية.

ـ كيف واجهت الأمر؟

نظرت إليه مجفلة: «عانيت كثيراً من الوحدة. وافتقدت جيف إلى أقصى حد...».

في تلك اللحظة فقط، انتبهت نيكولا إلى أن دومينيك يمسك يديها بكلتيّ يديه، ليواسيها ويخفف عنها ما سببته لها تلك الذكريات من معاناة. حرّكت لمسته تلك مشاعرها بقوة، وأيقظت الأحاسيس الكامنة في داخلها. ثم سمعته يقول: «هذا طبيعي ما دمت قد عشت معه معظم حياتك. كيف كان شكله؟».

فقالت من دون تفكير: «كان يشبهك كثيراً».

وسرعان ما أبعد يديه عن يديها وحوّل نظراته عنها، فأدركت نيكولا أن هذه المقارنة لم تعجبه مطلقاً.

ثم قال ببرودة: «حسناً، بما أنك أحببته كثيراً، ينبغي أن أشعر بالغرور... رغم أنك لا تعرفيني إلى حد يكفي لكي تقارني بيننا».

ـ أنا... عنيت المظهر. كان طويلاً، أسمر، ووسيماً مثلك...

فقال ساخراً: «طويل، وأسمر، ووسيم... إنها صفات شائعة لوصف الرجل، لكنها تحمل الكثير من المغالطات. تابعي حديثك على أي حال».

عندما وصفت زوجها الراحل، وقارنت في ذهنها ملامحه بملامح الرجل الجالس أمامها، أدركت أن ظنها أنهما متشابهان خطأ كليّ.

كان طول جيف يفوق الستة أقدام، إلا أنه كان ليبدو نحيفاً مقارنة بهذا الرجل واتساع صدره وعرض كتفيه.

وإذ وجدت في تفكيرها هذا عدم وفاء فظيع لجيف، نبذت الفكرة من ذهنها.

شعر كلا الرجلين أسود فاحم شبه جعد، لكن شعر هذا الرجل قصير ومنظم، بينما كان شعر جيف جعداً فوضوياً صبيانياً.

في الواقع، كان جيف صبيانياً في أمور كثيرة، كما كان حساساً وذا شخصية حالمة. أما هذا الرجل فيمكن وصفه بأي شيء ما عدا أنه صبياني. يداه قويتان وأصابعه خشنة وأظافره أنيقة. كان وجهه وسيماً بملامح نبيلة تلوح فيها الصلابة والسلطة.

كان جيف بطبيعته رقيقاً، مراعياً للأحاسيس. أما طبيعة دومينيك فهي لا تعرفها. ومع ذلك، تذكرت كيف سوّى شالها حول كتفيها، فشعرت بثقة غريبة أنه يمكن أن يكون حنوناً حامياً أيضاً.

وشعرت بالحنين إلى الحنان والحماية. كان دومينيك يتأمل وجهها، فلاحظ ما بدا عليه من كآبة، وقال: «حان الوقت لتغيير الموضوع. أدرك أن الحديث عن زوجك ليس سهلاً عليك».

www.elromancia.com

فأجابت: «كان هذا مستحيلاً منذ فترة قصيرة، لكن أظنني بدأت أخيراً أتعود على فكرة خسارته».

وكانت هذه هي الحقيقة. فهذه الليلة، رغم بعض الصعوبات، تحدّثت عن جيف من دون ألم نسبياً.

ستحتفظ بذكريات سعيدة كثيرة، وسيحتل دوماً مكاناً مميزاً في قلبها. لم تعد تشعر بذلك الحزن المحبط الذي تملكها طوال السنوات الثلاث الماضية.

قال دومينيك وهو يراقب ملامحها برزانة: «مرحباً بعودتك إلى العالم. ما هي خططك للمستقبل القريب؟».

- سأمضي فترة قصيرة في فينيسيا وسأجعل من هذه الإجازة بداية جديدة. فأنا...

كانت عيناه الرماديتان مركزتين على وجهها بعنف، وعندما أوشكت أن تخبره عن جون، والغرض من رحلتها إلى فينيسيا، ترددت. قررت أنها قالت أكثر مما ينبغي لليلة واحدة، فأردفت: «لم آخذ إجازة منذ التحقت بعملي الحالي. وهكذا قررت أن الوقت حان لآخذ استراحة».

وطلب لها دومينيك قهوة مع القشدة، وطلب لنفسه قهوة سادة.

وصلت القهوة بسرعة مصحوبة بطبق من الفضة مليء بالشوكولا. وعندما ابتعد النادل، سألها دومينيك: «هل سافرت إلى فينيسيا من قبل؟».

- لا، رغم أنني دوماً كنت أريد ذلك. فأتصوّر الدفء والألوان، والمباني القديمة الرائعة والماء في كل مكان وجموعاً من الناس...

فقال باسماً: «وكأنك جمعت كل شيء تقريباً، رغم أن جموع الناس تتواجد في الصيف وأثناء الكرنفالات، في المناطق السياحية فقط».

- يبدو أنك لا تجد في ذلك مشكلة؟

- ليس بشكل شخصي. ثمة مناطق كثيرة في فينيسيا لا يزورها سائح واحد... وهي في حالة ركود تام. أما بالنسبة للمناظر الجميلة.. فهذا يعود إلى وجهة نظرك.

- هل عشت هناك طويلاً؟

- طوال حياتي باستثناء ثلاث سنوات عشتها في اكسفورد في إنكلترا، وسنة أمضيتها في الترحال. وكما قلت لك، أبي كان أميركياً لكن أسرة والدتي عاشت في فينيسيا منذ عهد «جمهورية فينيسيا القديمة». وما زالت «فينيسيا» من أجمل مدن العالم.

قالت وهي تلحظ الزهو والحماسة في صوته: «وأنت تحب الحياة فيها».

- نعم، أحبها فهي غير مملة أبداً. إنها دوماً متنوعة الأجواء، فالجوّ يكون مشمساً تارة، وممطراً تارة أخرى. وفي الأمسيات تصبح ساحة «سان ماركو» أفضل مكان للعشاق. شيء ما في جوّ تلك الساحة يجعل العشاق من كل الأعمار يجلسون فيها ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً...

تصوّرت نيكولا نفسها جالسة في ساحة «سان ماركو» مع دومينيك وهما ممسكان بيديّ بعضهما البعض، ما أرسل رعشة في جسدها. وإذ رأى منها هذه الحركة الخفيفة، سألها: «هل تشعرين بالبرد؟».

وقبل أن تتمكن من الرّد، أشار إلى النادل وهو يقول: «أظن أن الوقت حان للتحرك. إذ علينا أن نقود السيارة فترة طويلة، وعليّ أن أنطلق باكراً».

دفع دومينيك الحساب ووقف، وبانحناءته المعتادة جذب كرسيها إلى الخلف.

أسفت نيكولا لانتهاء هذه الأمسية السحرية، إلاّ أنها سارت إلى جانبه، ليهبطا تلك الدرجات المتآكلة إلى قاعة الطعام ومنها إلى الفناء الداخلي المضاء.

كانت سيارة دومينيك تقف أمام الباب.

أخذ قلبها يخفق حين أمسك بمرفقها، وأجلسها في مقعدها، ثم أخذ مكانه خلف المقود، بينما وقف البارون يلوّح لهما مودعاً.

وبعد ذلك بلحظة كانا ينطلقان نحو الطريق الجبلي، هابطين إلى الوادي.

كان دومينيك يقود السيارة مركّزاً على الطريق بصمت. أما نيكولا،

فشعرت بقوة جاذبيته الطاغية، ولم تعد تفكر إلاّ به، وبما سيحمله لها الغد عندما يصلان إلى «فينيسيا». تساءلت عما إذا كان سيسألها أين ستقيم، أم سيقترح أن يراها في الصباح التالي قبل أن ينطلق كل منهما في رحلته؟

راح دومينيك يلتفت إليها بين الفينة والأخرى، ليطمئن إلى أنها بخير بعد كل ما أخبرته به من أحداث حياتها الماضية، ما جعلها تغرق في بحر من السعادة لاهتمامه بها.

وكانت لا تزال مستمتعة بشعور الحماسة والتوقع عندما دخلا إلى موقف السيارات في الفندق.

ساعدها على الخروج من السيارة، ثم رافقها إلى المصعد وضغط الزر إلى الطابق الخامس.

عندما وصلا أمام غرفتها، أخرجت المفتاح من حقيبتها ووضعته في القفل.

كانت تشعر بدوار بسيط. ربما بسبب انتقالها بسرعة بين أمكنة متفاوتة الارتفاع، وهي التي لم تتعوّد ذلك.

ـ اسمحي لي.

أخذ المفتاح منها وفتح الباب، ثم أعاده إليها بابتسامة.

ـ شكراً.

وقبل أن يذهب إستدارت إليه لتقول: «وشكراً على هذه السهرة الجميلة. لقد استمتعت بها كثيراً».

جعلت هذه الحركة المفاجئة رأسها يدور. وللحظة خاطفة فقدت توازنها ومالت نحوه، واضعة كفيها على صدره لتثبّت نفسها. شعرت بحرارة جسده من خلال قماش قميصه الرقيق. وعندما رأت جسده يتصلب ويقف جامداً تماماً، تراجعت إلى الخلف قائلة بصوت أبح: «آسفة».

ـ لا داعي للأسف... أنا مسرور لاستمتاعك بالسهرة.

رغم بساطة هذه الكلمات، شعرت نيكولا بتوتره، فنظرة واحدة إلى وجهه أظهرت لها صراعاً داخلياً.

قالت بشيء من الارتباك: «حسناً، تصبح على خير».

ـ تصبحين على خير، يا نيكولا.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطبها فيها باسمها الأول. نظرت، مأسورة الفؤاد إليه وهو يلفظ اسمها، وأدركت أنها تريده أن يعانقها بل هي متلهفة إلى ذلك.

وكأنما شعر برغبتها الصامتة تلك، فأمسك بذراعيها وجذبها إليه وعانقها.

لم يكن ثمة شيء خاص في ذلك العناق... إلا أن نيكولا شعرت بالوهن في أوصالها فارتخت ركبتاها، وبدا وكأن عظامها تذوب.

طوّقها بذراعيه وكأنما وهج من النور أظهر الماضي والمستقبل معاً، فاستسلمت لعناقه بكل المشاعر التي لطالما كبتتها.

وبعد حين، ابتعد عنها فتمالكت نفسها ودخلت غرفتها ثم التفتت إليه ترمقه بنظرة حملت الأحاسيس كلها التي أثارها فيها، قبل أن تودّعه وتقفل الباب.

* * *

٣ ـ طعم الغدر

استيقظت نيكولا لتجد ضوء النهار يغمر الغرفة. أمضت فترة قصيرة بين النوم واليقظة، وهي تحدق إلى السقف حيث كانت أشعة الشمس تتراقص. شعرت باسترخاء ورضى لم تعرفهما منذ سنوات.

حاولت متكاسلة أن تطرد النعاس من عينيها لتجد سبباً لهذا الاسترخاء الذي تشعر به. وفجأة، شغل عقلها دومينيك.

ذكرى وجهه الأسمر الوسيم، والاهتمام الذي أحاطها به خلال سهرتهما معاً، كل هذا تدفق عائداً إليها.

وفاض قلبها بالمشاعر وكأنها اشتاقت إلى عناقه.

لمدة طويلة كان العالم يبدو لها مكاناً بارداً موحشاً. لا حب، لا دفء، لا فرح فيه. كانت قد أنكرت على نفسها كل رغبة أو إحساس، مغلّفة أشواقها ومشاعرها بالثلج، بينما الحياة مستمرة من حولها.

وإذا بالحظ يقدم لها فرصة أخرى للسعادة. وكأنما تعويضاً عن الجمود الذي فرضته على نفسها.

كل ما عرفته عن دومينيك هو ما اكتشفته أثناء نهار واحد. وهو أنه مرافق ممتاز، ذكي، ساحر، وذو حس فكاهي وشهامة قديمة الطراز.

ليس لديها فكرة عن شخصيته كإنسان. ومع ذلك سمحت له بمعانقتها، كما أفضت له بمكنونات قلبها وأحداث حياتها الماضية.

ورغم أنها غير نادمة على ما صدر منها من اعترافات، إلاّ أنها وجدت نفسها تتساءل عما جعلها تتصرف بذلك الطيش والتهوّر. أهي الإثارة التي

شعرت بها لوجودها في مكان ساحر مع رجل يفوقه سحراً أم الرغبة في تفريغ ما لديها من كبت؟ إذا كانت تتوخى الصدق، فعليها أن تعترف بأن السبب لم يكن هذا أو ذاك.

منذ البداية وجدت دومينيك جذاباً للغاية. كما أنها لا تستطيع أن تلومه على إلحاحه عليها بالأسئلة أو على تعليقاته. فلا بد أنها احتاجت لأن تفصح عن مكنونات صدرها لشخص ما، فكان هو هذا الشخص. وعندما لاحظ ضعفها ولهفتها إليه عانقها ذلك العناق الحار الذي ألهب مشاعرها.

لا يمكنها أن تلومه فقد كانت راغبة في ذلك العناق أيضاً... وكم كان عناقه رائعاً وتنهدت.

كان عناق جيف حنوناً رقيقاً ودافئاً، لكنها لم تدرك قبل الليلة الماضية كم كان ينقصه من حرارة.

فكرت في دومينيك، وتذكرت ما سبق وقاله من أنه سينطلق باكراً في رحلته. نظرت إلى ساعتها فإذا هي الثامنة والنصف. لعله ينتظرها في غرفة الطعام، متسائلاً متى ستأتي.

ألقت عنها الأغطية. وحالما اغتسلت ونظّفت أسنانها، ارتدت ثوباً من قطعتين خفيفتين، وحذاءً دون كعب، ثم أسرعت تحزم أمتعتها.

وقفت أمام المرآة، فرأت امرأة شابة غريبة على شفتيها ابتسامة، امرأة سعيدة متحمسة ذات وجه متوهج وعينين خضراوين متألقتين.

فبادلتها الابتسامة بشعور بالغ بالسعادة.

أنهت تثبيت شعرها بالدبابيس، لتسرع بعد ذلك إلى المصعد تاركة أمتعتها في الغرفة.

كانت غرفة الطعام مشرقة، ورأت مائدة هلالية الشكل تحمل الفواكه والحليب، والخبز والجبن والكرواسون والمربيات المتنوّعة.

ثلاث أو أربع طاولات كانت مشغولة. لكنها لم تجد أثراً لدومينيك.

إذن، فقد نزلت قبله! أخذت تفكر في ما ستقوله له لتغيظه لأنها سبقته في النهوض صباحاً، وهي تمدّ يدها إلى عصير الفاكهة والكرواسون، ثم

تجلس إلى مائدة لشخصين. وعندما ظهر نادل طلبت منه قهوة.

أنهت فطورها مع فنجاني قهوة، ودومينيك لم يظهر بعد.

عادت إلى الطابق الأعلى ثم قرعت باب غرفته، لكنها لم تتلقَ جواباً. طرقت بمزيد من العنف ظناً منها أنه قد يكون في الحمام... ولكن دون جواب أيضاً.

وقفت في الممر مترددة، متسائلة عما عليها أن تفعل، وإذا بخادمة تظهر، دافعة أمامها عربة تحمل أغطية نظيفة.

فتحت باب الغرفة رقم ٥٤ وهي تنظر إلى نيكولا بفضول. فسألتها نيكولا بحذر: «أردت التحدث إلى الرجل الذي كان يشغل هذه الغرفة...».

ـ لقد رحل يا سيدتي. الغرفة خالية.

ـ آه.

لا بد أنهما أضاعا بعضهما بعضاً بشكل ما، ولعله يسدد الحساب.

عادت إلى غرفتها وحملت أمتعتها ثم استقلت المصعد إلى ردهة الفندق.

رأت جمعاً وافراً من الناس، بمن فيهم ذلك الرجل ذو الوجه الطويل الذي كان ينظر إليها أمس وهو يقرأ الصحيفة. أما دومينيك فلم يكن موجوداً.

دفعت حسابها ثم نزلت إلى موقف السيارات. وبعد أن وضعت أمتعتها في الصندوق، أقفلت السيارة ثم سارت إلى الناحية الأخرى حيث كانت تقف سيارة دومينيك البيضاء.

لكنها لم تجدها.

لا يمكن أن يذهب من دون أيّ كلمة.

أسرعت بالصعود إلى مكتب الاستقبال. أعطت اسمها للموظف، وسألت: «هل ترك لي أحد رسالة أو خبراً؟».

ناولها الموظف مغلفاً أبيض يحمل شعار الفندق: «المعذرة يا سيدتي. كان يجب أن أسلمه لك حين دفعت الحساب. لكنني سهوت عنه».

جلست على أحد المقاعد الجلدية، ثم فتحت المغلف. وقرأت الرسالة:

«كان عليّ أن أرحل باكراً إلتزاماً بالعمل. لم أجدك في غرفة الطعام فلم أشأ أن أزعجك وأيقظك من نومك.

أتمنى لك رحلة جيدة وإنني متشوّق إلى رؤيتك في فينيسيا.

دومينيك»

إنني متشوّق إلى رؤيتك في فينيسيا...

لكنه لم يسألها أين ستقيم، ولا أخبرها أين يسكن. كل ما قام به هو ملاحقتها بالأسئلة، حتى أفرغت له قصة حياتها بأكملها، بينما لم يخبرها شيئاً عن نفسه. كل ما عرفته عنه، هو أنه رجل أعمال يعيش في فينيسيا.

وفينيسيا مدينة كبيرة يعيش فيها كثير من الناس.

عندما جلست تحدق بجمود إلى قطعة الورق، خطر في بالها أنه اختار أن يفارقها. لو أراد حقاً أن يراها في فينيسيا، لأعطاها رقم هاتفه، أو أخبرها أين تجده.

تبدد شعورها بالإثارة وكأنه لم يكن، وعضت شفتها حتى شعرت بطعم الدم.

اعتبرت خروجهما معاً الليلة الماضية، بداية لعلاقة رائعة. لكن، بالنسبة إليه لم تكن سوى رفيقة لسهرة واحدة. وإذا كان قد أبدى نحوها حناناً أو اهتماماً فهذا لا يعني أنه يهتم بها حقاً. فبالنسبة إليه لم تكن سوى امرأة وحيدة تسلّى بصحبتها على العشاء.

لا بد أنه تعوّد أن تلقي النساء بأنفسهن عليه، وربما يحدث له ذلك كثيراً بسبب شكله وسحره.

تذكّرت تردّده الخاطف قبل أن يعانقها، وذلك التعبير الذي بدا على وجهه، والذي اقتنعت الآن بأنه كان لوماً، وتملّكها إحساس بالعار والمذلة. لقد ألقت بنفسها على رجل لا بد أنه لم يشعر نحوها بسوى الاحتقار.

لعله متزوج، فهي لم تسأله، وهو لم يذكر ذلك.

لكن، ما دام الرجل نصف إيطالي ويعيش في إيطاليا، فهو على الأرجح متزوج، ولديه أسرة. الرجال الإيطاليون يميلون إلى الزواج في سن مبكرة، ولا بد أنه في الثلاثينات من عمره.

شعرت بقلبها ينكمش، وأوشكت أن تلقي بالرسالة في أقرب صندوق قمامة، لكنها غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة، ودستها في حقيبة يدها.

لقد كتبها لها، وهي الصلة الوحيدة بينهما. ورغم أنها تعلم أنها تتصرف كحمقاء ضعيفة، إلا أنها لم تستطع أن تحمل نفسها على إلقائها، بكل بساطة، في صندوق القمامة.

* * *

كان النهار رائعاً بشمسه الذهبية، وسمائه الزرقاء. لكن توقعاتها السارة لهذه الرحلة تلاشت وهي تقود سيارتها، مثقلة القلب شاعرة بالحزي من تصرفاتها. وأخيراً، خرجت من «إسبراك» متوجهة جنوباً نحو إيطاليا.

حدّثت نفسها بحزم بأن لا فائدة من البكاء على ما لا يمكن تغييره، ثم جاهدت لكي تنبذ دومينيك لوريدان من ذهنها.

لكن هذا كان مستحيلاً. لم يبارحها منظر وجهه الوسيم القويّ. ومرة بعد مرة كان عليها أن تكافح لكي تنسى رنين صوته وابتسامته ولمسة يده.

على أي حال، وبسبب تركيزها على القيادة، وعلى مشاهد الجبال الرائعة استطاعت أن تقطع مسافة طويلة من دون أن تفكر فيه.

وبعد حين، قرّرت أن تسمع بعض الموسيقى، فوضعت شريطاً كانت قد أحضرته من أجل الرحلة.

وبعد لحظة، صدحت ألحان رخمانينوف لتملأ الجو حولها.

وفيما هي تستمع إلى هذه الموسيقى الدافئة الرائعة، عادت أفكارها مرة أخرى إلى دومينيك، وإلى السهرة التي أمضياها معاً.

تفكيرها في عناقهما بعد ذلك، جعل السخونة تغمر جسدها. لكن، بالإضافة إلى حرارة المشاعر، أحست بمذلة محرقة.

توقّفت عند مطعم لتتناول الغداء، ووصلت إلى فينيسيا عصراً ثم اجتازت جسر «ديلا ليبرتا» الذي يبلغ طوله ثلاثة كيلومترات ونصف الكيلومتر.

ثم، وفجأة، لاحت أمامها قبب الكنائس وأبراجها فبدت رائعة الجمال في وميضها المتلألىء كالسراب.

كانت ساحة المدينة مملّة كأيّ ساحة كبيرة أخرى. ولم يكن يسمح بدخول السيارات إليها، فالسيارات تترك إما في مرآب خاص وإما في مواقف السيارات العامة.

أوقفت سيارتها مترددة، غير واثقة تماماً مما عليها أن تفعله. وإذا بصبي في حوالى الثانية عشرة من عمره، يرتدي بنطلوناً وقميصاً رثين، يتقدّم منها ويحدثها من خلال النافذة المفتوحة: «أنت إنكليزية؟ في إجازة؟».

فأجابت بحذر: «نعم».

ـ سأحرس لك أمتعتك بينما تذهبين أنت لتوقفي السيارة، وبعد ذلك أصحبك إلى حيث الباص المائي.

هل تجازف بترك أمتعتها مع هذا المتشرد الأسمر اللون، أم أنه سيهرب بها حالما تدير ظهرها؟

ولكي تمنح نفسها فرصة للتفكير، قالت: «أنت تتحدث الإنكليزية جيداً».

ـ تعلمتها من زوجة إبن عمي التي عاشت في أميركا. ضعي أمتعتك هنا وسأحرسها إلى حين عودتك.

كانت قد وضعت كل ما له قيمة حقيقية في حقيبتها الصغيرة. وفي مثل هذا الجوّ الحار، سيكون نعمة من الله إذا استطاعت أن تترك حقيبة ملابسها في السيارة.

وإذ رآها الصبي مترددة، قال يستحثها: «لا بأس... أنا لا أسرق».

- ما اسمك؟

- كارلو فوسكاري.

قال اسمه من دون تردد فحسمت أمرها وفتحت باب السيارة لتخرج منها.

برزت الشمس ساطعة من بين الغيوم، وهي ترفع حقيبتها الكبيرة من صندوق السيارة، وتضعها على الأرض المغبرّة.

فتحت حقيبة يدها وأخرجت مبلغاً من المال، ثم أعطته نصف أجرته وأعادت النصف الآخر إلى حقيبتها.

بسرعة أدهشتها، دسّ الصبي النقود في جيب بنطلونه القصير الرث وهو يقول بابتسامة عريضة: «قلت لك إنك لا تثقين بي».

فبادلته ابتسامته: «وهل كنت ستفعل لو كنت مكاني؟».

قالت له هذا بالإيطالية، فنظر إليها باحترام: «أنت تتكلمين الإيطالية جيداً يا سنيوريتا...».

فأكملت له: «ويتني».

- سنيوريتا ويتني. لكنني أتمرّن على التحدث باللغة الإنكليزية..

وقال مشيراً بيده القذرة: «إذهبي من هذه الناحية إلى موقف السيارات لتركني سيارتك، وأنا أنتظرك هنا».

عندما عادت تحمل التذكرة وحقيبتها الصغيرة، منحها ابتسامة عريضة وقحة: «أنظري! أنا لم أسرق».

فقالت برزانة: «هذا ما أرجوه».

- من هذا الطريق.

قال هذا وهو يحمل الحقيبة الكبيرة فقالت: «دعني أحملها عنك. إنها كبيرة بالنسبة إليك».

- سأحمل إذن الحقيبة الصغيرة.

وعندما هزت رأسها رفضاً، قال: «لا بأس. سأحضر من يساعدني. سيأتي ماريو».

وضع إصبعين في فمه وأطلق صفيراً ثاقباً. ومن مكان ما، ظهر ماريو، وهو شاب وسيم صغير السن ذو شعر بني جعد وعينين جياشتين بالمشاعر.

قال كارلو باختصار: «أخي».

ثم انطلق الثلاثة من أمام الدرجات الحجرية إلى «القناة الكبيرة»، ومن ثم إلى الرصيف الذي يرسو عنده الباص لنقل الركاب.

- أنظري، لقد جاء الباص.

بدا كارلو كأنه مسؤول شخصياً عن وصول الباص المائي الذي كان يقترب من رصيف العبور.

أخرجت من حقيبتها الجزء الباقي من الليرات الورقية، وناولته إياها: «شكراً يا كارلو».

كان ماريو أكبر منه بسنوات، وثيابه أفضل من ثياب كارلو. وتساءلت نيكولا عما إذا كان عليها أن تمنح الصبي الآخر «بقشيشاً» أيضاً، فابتسم لها وكأنه تكهنَ بحيرتها، وقال: «سرني أن أخدمك، يا سنيوريتا».

فقالت مسرورة لأنها لم تجرح مشاعره: «شكراً يا ماريو».

سألها كارلو: «أين تقيمين؟».

- في فندق «لونغا». «كامبو دوليني».

- أعرفه. تستقلين الزورق إلى «سان سيباستيان» ومن ثم إلى «كالي دوليني».

وعندما دفعها سيل الناس إلى الأمام، ناداها: «وداعاً، يا سينوريتا ويتني».

ما أن تحرك الباص المائي حتى شعرت نيكولا، بالنسيم البارد المنعش. كانت أشعة الشمس تتألق فوق سطح المياه الفيروزية، فتبهر العيون، ما جعلها تخرج نظاراتها الشمسية من حقيبتها.

بدت بعض البيوت على ضفة القناة مهملة إلى درجة محزنة، فسلالمها متآكلة، وواجهاتها تنمو عليها أعشاب البحر اللزجة السوداء، لكنها لا تزال رائعة حتى في ضعفها وتفسخها، وما زالت تردّد صدى مجدها القديم.

إنها مدينة جون، رغم أنه لم يولد إيطالياً. وهي أيضاً مدينة دومينيك...

أشعرتها الذكرى بغصة في حلقها، وكانت لا تزال تحاول نبذ ذكرى دومينيك من ذهنها عندما وصل المركب إلى «سان سيباستيان». حملت أمتعتها ونزلت مجموعة صغيرة من الركاب.

ورغم أنّ الهواء كان ثقيلاً راكداً، إلاّ أنّ ريحاً ساخنة راحت تهب من مكان ما، فتحرك مظلات المحال المغلقة وتثير الغبار.

كان «كالي دوليني» شارعاً ضيّقاً، فسارت نيكولا في الناحية الظليلة منه، وهي تضع الحقيبة الكبيرة على الأرض من وقت لآخر لتستريح.

وبسبب حرارة الجوّ، لم تجد في الطريق سوى رجل يسير خلفها على مسافة بعيدة. لم تكن تبدو عليه العجلة، فهو لم يدركها قط بالرغم من توقفها المتكرر.

أخيراً، دخلت ساحة «كامبو دوليني» فإذا بها ساحة مربعة محاطة بمبانٍ مغلقة الأبواب.

المدخل الخلفي لفندق «لونغا»، لم يكن يبشّر بالخير. لكن الداخل بدا مترفاً فخماً، بأرضيته الرخامية والثريات البلورية المتدلية من سقفه.

وقفت نيكولا عند مكتب الاستعلامات في الردهة، فرأت أن مدخل الفندق الرئيسي يواجه قناة موازية لنهاية «كامبو».

أخذت مفتاح غرفتها وإستقلت المصعد إلى الطابق الثالث. كانت الغرفة فسيحة وبرودتها منعشة، أما أرضها فمصقولة وأثاثها عصري.

كانت النوافذ مفتوحة لكن المصاريع الخشبية مغلقة لتصدّ الشمس. فتحتها نيكولا قليلاً فإذا بها تجد نفسها في مواجهة الساحة، التي تغمر الشمس ثلثي مساحتها.

وبينما هي واقفة أمام النافذة، لاحظت رجلاً يقف في الظل عند آخر الساحة. كان يشبه إلى حدّ بعيد الرجل الذي راح يحدّق إليها في الفندق في «إسبراك».

مالت إلى الأمام ويدها على المصراع الخشبي لكي تراه بشكل أفضل، وإذا بالمصراع ينفتح فجأة على اتساعه وقد تصاعد منه صرير مرتفع.

وعندما استعادت توازنها عادت لتنظر إلى الساحة، لكنها لم تجد للرجل أثراً.

شعرت نيكولا بالحرّ، وكان جسمها ينضح بالعرق، فقررت أن أفضل ما تقوم به الآن هو الاستحمام وتغيير ملابسها.

***

بعد أن جففت جسدها، فتحت حقيبتها الصغيرة وأخرجت ملابس داخلية نظيفة وثوباً حريرياً أخضر تعلوه سترة فضفاضة تلائمه.

انتعلت حذاءً خفيفاً منخفض الكعبين، ووضعت في حقيبة يدها مفاتيح «كا- مالفازيا» ومن ثم انطلقت لتستكشف.

غادرت الفندق من الباب الرئيسي، ثم وقفت على الرصيف لحظة تتمعّن في الخريطة. ساحة سان ماركو، محور نشاط المدينة، تقع عند البحيرة المالحة ومن السهل العثور عليها...

وفجأة، عاودتها ذكرى وجه دومينيك الجذّاب الصلب الملامح. وفكّرت في أنه هنا في فينيسيا، وقد لا يكون بعيداً عن هذا المكان، فجعلتها هذه الفكرة تشعر بالبهجة والمرارة معاً.

وانقبض قلبها، ليت الأمور جرت بشكل مختلف! فدومينيك هو الرجل الذي يسعدها أن تمضي معه بقية حياتها. لكنها سرعان ما أخذت تعنف نفسها... ما هذه الحماقة؟ إنها لا تعرف الرجل. ماذا لو كان متزوجاً؟

نبذت صورة الزوجة المخدوعة من ذهنها ربما للمرة المئة ذلك النهار، ثم عادت إلى الخريطة لتعثر على المنزل الذي ما زالت لا تصدق أنه ملكها.

كان السنيور مانسيني قد أخبرها أن «كا- مالفازيا» يقع في «كامبودي كافالي»، وهو قريب جداً من «القناة الكبيرة». وأضاف أن شارع «ريو دي

كافالي» يقع خلفه، ما يعني أنه قريب أيضاً من المياه.

فكرت بأن العثور على شارع «ريو دي كافالي» أسهل من العثور على الساحة التي يقع فيها «كا- مالفازيا». تفحّصت كل ما يحيط بها... نعم، ها هو... إنه قريب جداً من «الكامبو».

إنها على موعد في الصباح مع السنيور مانسيني لكي يريها المنزل. لكن ساورها شعور مفاجىء بعدم الصبر، فقررت أن تلقي الآن نظرة من الخارج على المنزل، إذا ما تمكنت من العثور عليه.

بدا الشفق مزيجاً من الألوان الذهبية التي تنعكس على الجدران المتآكلة وقرميد المنازل. وفي الشوارع المائية الخلفية بدا سطح المياه أشبه ببركة من الزيت القاتم اللون.

لم تأخذ وقتاً طويلاً لكي تدرك أنها قد تضل طريقها بسهولة في فينيسيا. ذلك أن الطرقات، بعيداً عن وسط المدينة، تبدو كمتاهة من الممرات ضيقة. أما أسماؤها فوضعت عالياً على زوايا المباني، وكان بعضها مكتوباً باللهجة المحلية، ما جعل من الصعب عليها فك رموزها.

لا شك أنه من الأسهل عليها تعود إلى «القناة الكبيرة»، لتنطلق منها. لكنها أرادت أن ترى أنحاء فينيسيا التي نادراً ما يراها السياح، أو لعلهم لا يرونها على الإطلاق.

إنها فينيسيا التي ألفها جون، فينيسيا التي عرفها دومينيك وأحبها.

* * *

٤ ـ القصر الغامض

كانت النوافذ مغلقة في معظم المنازل التي مرت بها، ما يعطي انطباعاً بالخلاء والصمت. لكن رنين الهواتف وقرقعة الأواني كانت تسمع من حين إلى آخر.

وأخيراً وصلت إلى هدفها، بعد أن سارت في خط متعرج، عابرة جسوراً لا تُحصى.

للوهلة الأولى، بدا لها أن «كامبو كافالي» مجرد ساحة خلفية فيها عدد من الأشجار الظليلة، لكن النافورة الرخامية الجميلة في وسطها، التي تحيط بها تماثيل لأربعة جياد تقفز تحت رذاذ الماء، أنبأتها بأن الساحة كانت في ما مضى أكثر تألقاً وبهاء.

نظرت نيكولا حولها، فرأت رجلاً يتحدث عبر الهاتف الخلوي ما لبث أن توارى في أحد الأزقة المتفرعة من الساحة. بدا لها هذا الأمر غريباً في مكان كهذا.

في الجهة الخلفية للساحة، باتجاه «ريو دي كافالي»، رأت قصوراً جميلة قديمة، بواجهاتها البالغة الزخرفة ونوافذها المقوّسة التي تعكس فن العمارة.

كان السنيور مانسيني قد ذكر أن قصر «كا- كالفازيا» قائم قبالة المياه، لكن نيكولا فكرت أنه من المستحيل أن يكون المنزل الذي تبحث عنه هو أحد هذه القصور الفخمة.

وقفت مترددة، وإذا بامرأة عجوز متشحة بالسواد، تخرج من

www.elromancia.com

الكنيسة، وتتجه نحوها. خاطبتها نيكولا بالإيطالية: «عفواً، يا سيدتي. هل يمكنك أن تساعديني؟ أنا أبحث عن قصر «كا- مالفازيا».

- إنه مجاور لقصر «دي كافالي».

لم تستطع نيكولا أن تجد أثر انفصال في واجهة القصر الذي أشارت إليه المرأة.

رأت السيدة العجوز، ذات الوجه الأسمر المغضن كقشرة الجوز، الحيرة على وجه نيكولا، فضحكت: «ذات يوم، كان «كا- مالفازيا» جزءاً من القصر، ذلك هو الباب».

إلى يمين مدخل القصر، رأت نيكولا درجات تؤدي إلى باب أسود مرصّع بمسامير لامعة ضخمة، وقد علق فوقه فانوس، وقامت على كل جانب منه سلسلة من النوافذ الطويلة الضيقة.

- شكراً، يا سنيورا..

- بكل سرور.

أومأت السيدة العجوز بلطف ثم تابعت طريقها، بينما رفعت نيكولا رأسها وظللت عينيها بيدها وراحت تتفحص المنزل الذي أصبح الآن ملكاً لها.

كان المنزل مؤلفاً من أربعة طوابق، مع شرفات في الطابقين العلويين. وبدا لها أن «كا- مالفازيا» أكبر وأفخم بكثير مما كانت تتصور.

لم ترَ نوافذ في الطابق الأول، وبدا لها أنه كا يستخدم كمرآب للزوارق، أما النوافذ العليا فكانت محكمة الإغلاق. صعدت نيكولا الدرجات، وبعد أن أخرجت المفاتيح من حقيبتها، جربت أكبرها في القفل، فتحرك بسهولة تامة. أمسكت بحلقة الباب الحديدية المزخرفة، ثم دفعته وتقدمت خطوتين إلى الداخل. بعد حرارة «كامبو دي كافالي» كان الجوّ هنا معتماً، بارداً، ومنعشاً.

أحست أن الهواء المنبعث من الداخل تشوبه بعض رائحة العفونة، لكن هذا ليس مستغرباً فالمنزل مغلق منذ سنوات.

عندما تعوّدت عيناها على العتمة، وجدت نفسها تقف في بهو مبلط بالرخام يتوسّطه سلّم رائع الجمال.

كانت مصاريع النوافذ تسمح بتسرّب ما يكفي من الضوء ما سمح لها بأن ترى أبواباً عدة مغلقة من كل ناحية.

بعد أن وصلت إلى هذا الحد، رأت أن لا بأس من إلقاء نظرة سريعة على بقية المنزل... رغم أن آخر ما تريده هو أن تجرح السنيور مانسيني بأن تسبقه إلى المنزل... لكن طالما لم تفتح النوافذ أو تفسد أي شيء، فليس من الضروري أن يعرف أنها سبقته إلى هنا.

رأت مفاتيح الإنارة الكهربائية في الحائط قرب الباب فجربت إثنين منها دون جدوى.

حسناً! بإمكانها أن تأخذ فكرة على الأقل.

تركت الباب الأمامي مفتوحاً جزئياً وعبرت الردهة ثم أخذت تحدّق إلى داخل الغرف. حتى في هذه العتمة والنوافذ مغلقة، أمكنها أن ترى أنها رائعة، بسقوفها المزخرفة وأثاثها الأثري.

في الطرف الآخر، رأت قنطرة تؤدي إلى ممر حجري فسيح تكهنت أنه كان يؤدي يوماً ما إلى المطبخ وغرف الخدم. واستطاعت أن ترى عدداً من الدرجات الحجرية البالية تنساب صعوداً حتى تختفي في الظلام.

عادت إلى الردهة حيث الضوء المتسلل من الباب المفتوح ينير الأرض الرخامية البيضاء، وصعدت السلم الأنيق فإذا بها تصل إلى رواق تزيّنه أربع نوافذ مستطيلة مقفلة.

كانت قد وصلت لتوها إلى الدرجة الأخيرة، عندما سمعت صوت ارتطام مفاجيء جعلها تقفز من مكانها. كان صدى الصوت ما يزال يتردّد في أذنيها عندما استدارت لترى أن الضوء المتسرب من الباب الأمامي قد اختفى، وأن الباب نفسه مقفل.

أترى إحدى هبات الريح تلك أغلقته؟ أم أن ثقل الباب تسبّب في إغلاقه تدريجياً؟

وفجأة، شعرت بالضيق من دون سبب واضح. وتردّدت وهي تتساءل عما إذا كان عليها أن تنزل وتفتحه مرة أخرى. لكنها فكرت في أن الضوء الخفيف الذي يتسلل منه لن يشكل فرقاً في الطابق العلوي الذي كانت على وشك الصعود إليه. أليس من الأسلم أن يكون الباب مغلقاً؟

تلاشى الصدى، وساد صمت مطبق مرة أخرى. وقفت للحظات تصغي إلى الصمت إلى أن خُيّل إليها أنها تسمع صوت تنفسها وخفقان قلبها.

استجمعت شتات نفسها، وسارت إلى أقرب باب تفتحه. بدا واضحاً أن جون وزوجته عاشا في هذا الجزء من المنزل مع أن الغرف في هذا الطابق، كانت أكثر اتساعاً من المعتاد. وبالرغم من الظلمة، استطاعت أن ترى أن الأثاث عصري إلى حدٍ ما.

كان الغبار يغطي كل شيء، وهذا أمر طبيعي في منزل بقي مغلقاً لمدة طويلة.

رأت ممراً آخر فتساءلت إلى أين عساه يؤدي. سارت فيه بحذر، بعيداً عن الضوء الخفيف الذي كان يتسرب من مصاريع نوافذ الرواق. وعندما ازدادت عتمة المكان راحت تسير مستندة بيدها إلى أقرب جدار.

إضافة إلى الصوت الخفيف المثير للأعصاب الذي أخذ يصدر عن وقع خطواتها، إذا بها تنتبه إلى صوت آخر بدا خفياً.

اكتسحتها موجة باردة، فوقفت. واستدارت تحدّق إلى الظلام مصغية وقد حبست أنفاسها.

ها هو مرة أخرى... وقع الخطوات خفيف للغاية ما جعل بدنها يقشعر. ورغم أن الصوت في هذا الممرّ الحجري الضيق بدا كمجرد همس، فقد كانت متأكدة أن شخصاً ما يتبعها. وهو قريب جداً منها... شخص يسدّ عليها طريق النجاة.

انحبست أنفاسها في حلقها وأخذ قلبها يخفق بشدة. وأدركت فجأة أن خيارها الوحيد هو أن تتابع طريقها. وعندما تصل إلى الباب، قد تتمكن من

إقفاله ومن ثم تفتح النافذة وتصرخ طالبة النجدة.

شعرت نيكولا وكأنها تعيش كابوساً، فاستدارت وأرغمت ساقيها المرتجفتين على أن تتقدّم. وما أن سارت عدة خطوات، حتى لاح أمامها وبشكل مرعب جسم أسود.

مهما كانت طبيعة هذا الجسم، إلاّ أنه لم يتبعها إنما وقف بانتظارها.

خرجت من حلقها صرخة ممزقة، وتملكها الذعر، فاستدارت لتهرب من حيث أتت.

صرخ الصوت بحدّة: «قفي يا نيكولا. إذا حاولت أن تهربي في الظلام فلن تؤذي سوى نفسك».

وقبل أن تستوعب هذا التحذير، كانت قد تعثرت والتوى كاحلها، فسقطت على الأرض واصطدم رأسها بالجدار محدثاً صوتاً حاداً.

* * *

عندما استعادت وعيها، وجدت نفسها مستلقية على أريكة جلدية، فيما انحنى فوقها رجل متوسط السن، يفحص صدغها الأيسر.

إنتصب الرجل واقفاً وقال بالإيطالية مخاطباً شخصاً لم تتمكن من رؤيته: «إنه مجرد ارتطام خفيف لحسن الحظ».

ثم أخرج الرجل مصباحاً على شكل قلم من حقيبة سوداء، وسلط ضوءه على عينها اليمنى ثم اليسرى ليصدر قراره بعد ذلك بسرعة: «يسرني أن أقول إنه ما من دليل على وجود أيّ ارتجاج في المخ. والآن، بما أنك ذكرت احتمال التواء الكاحل...».

وانحنى يفحص كاحلها الأيسر الذي بدأ يتورم.

أجفلت عندما أخذت أصابعه تضغط وتجسّ: «نعم، ثمة التواء خفيف تسبب بقليل من الألم والتصلب، وقد يزداد الورم».

أخرج الرجل علبة صغيرة رش منها على المنطقة المصابة فشعرت نيكولا ببرودة كبرودة الثلج.

أعاد المصباح والعلبة إلى مكانهما وقال: «سأترك بعض المسكّنات. على المريضة أن تأخذ حبتين على الفور، وبعد ذلك عند اللزوم. إذا حدث أيّ غثيان أو عدم وضوح في الرؤية، فأرجو أن تخبرني حالاً».

ـ طبعاً، وشكراً لقدومك بسرعة يا دكتور. سيرافقك ستيفانو إلى الباب.

ورغم أنها لم تستطع رؤية الرجل الآخر، ولم تسمعه يتحدث بالإيطالية قط من قبل، إلاّ أنه كان بإمكانها أن تميز هذا الصوت في أي مكان ومن بين ملايين الأصوات. كانت قد عرفته بعد فوات الأوان، وهي تتعثر لتسقط على رأسها.

ـ كيف حالك؟

كانت ملابسه بسيطة مكوّنة من بنطلون خفيف وقميص رياضي، وبدا وجهه الأسمر الجذاب جاداً وهو يتقدم ليقف بجانبها.

أجابت وهي تجاهد لتجلس: «أنا بخير».

هذه الحركة المفاجئة جعلت رأسها يدور فأغمضت عينيها وهي تفكر ذاهلة: لا، لا بد أن كل هذا مجرد حلم. لا يمكن أن يكون دومينيك.

فتحت عينيها مرة أخرى فرأت أنه هو فعلاً.

قالت بضعف عندما أخذ يساعدها بحذر على الجلوس، ووضع وسادة خلفها: «لا أفهم».

ـ ما الذي لا تفهمينه؟

ـ كل شيء... أين أنا؟ ما الذي أفعله هنا؟ لماذا أنت هنا...؟

ـ أنت في قصر «دي كالفالي». وأنا هنا لأن هذا منزلي..

وأضاف بسخرية: «إذا لم تدركي هذا بعد، فنحن جاران. أحضرتك إلى هنا بعد أن أغمي عليك».

وضعت يدها على صدغها الذي ينبض بقوة: «ولكن ماذا كنت تفعل في «كا- مالفازيا»؟».

عندما لم يجب على الفور، أضافت: «وكيف عرفت أننا جاران؟».

قال ببرودة: «من الأفضل أن نترك الأسئلة إلى وقت لاحق. لقد أصبت بصدمة، وبضربة قوية على الرأس. سأطلب من مديرة منزلي أن تحضر لك كوب شاي وحبتين لتسكين الألم. بعد ذلك، وإذا كنت تشعرين بالتحسن، فستتحدث معاً بجدية».

وقبل أن تحاول مناقشته سار مبتعداً، وبعد لحظة سمعت صوت الباب الخشبي الثقيل ينغلق خلفه بهدوء.

شعرت وكأن عليها أن تقرص نفسها لترى إن كانت تحلم. نظرت حولها لأول مرة، فإذا هي في غرفة جميلة واسعة، مشمسة وحسنة التهوئة بالرغم من مصاريع نوافذها المغلقة جزئياً.

بدا أن الغرفة مؤثثة لتكون غرفة نوم ومكتباً في الوقت نفسه، وقد تنوّع أثاثها ما بين القديم والجديد. وبالرغم من أنها غرفة في قصر فخم، إلاّ أنها تبدو مريحة للسكن.

ولكن لماذا يعيش دومينيك لوردان هنا؟

حسناً، ولمَ لا؟. كان قد أخبرها أنه يعيش في فينيسيا. واقامته في قصر أمر غير مستغرب جداً، فلا بد أن الكثير من الناس في فينيسيا يعيشون في قصور، نظراً لتاريخ هذه المدينة العريق في الثراء.

أما الغريب حقاً، فهو أنه يعيش قرب منزل جون الذي أصبح الآن منزلها. المصادفات تحدث، وهي غالباً ما تكون أغرب من الخيال، لكن هذه المصادفة لا تصدق وهي أغرب من أن تصفها الكلمات...

وخطرت لها فكرة أخرى. فبالرغم أن المرّ في «كا- مالفازيا» كان مظلماً، ولا يمكن أن يكون دومينيك قد رأى وجهها، إلا أنه عرفها... فقد صرخ بها: (قفي، يا نيكولا...).

قطع عليها تأملاتها دخول امرأة ترتدي السواد، دافعة عربة شاي أمامها. وضعت المرأة الصينية على منضدة بجانب الأريكة، ثم ناولتها حبتي دواء وهي تقول بإنكليزية متعثرة: «طلب السنيور دومينيك أن تأخذي هذه».

- شكراً يا...؟
- إسمي ماريا.
- شكراً يا ماريا.
- أتتحدثين الإيطالية؟
- نعم.

بدا الارتياح على وجه المرأة العريض، وقالت بلغتها: «طلب مني دومينيك أن أخبرك أنه سيكون معك بعد ساعة...».

وملأت لها فنجانها قبل أن تتابع: «طلب مني أن أذكرّك بأن عليك، بعد أن تشربي الشاي، أن تستلقي وترتاحي».

رغم الكلمات المهذبة، بدا واضحاً أن ماريا اعتبرت طلب سيدها أمراً. فقالت: «شكراً».

عندما خرجت مدبرة المنزل، ابتلعت نيكولا الحبتين وارتشفت الشاي. وكانت قد بدأت تشعر بالتحسن لكنها لم تشأ المشاكسة فقررت أن ترتاح حسب رغبة دومينيك.

حاولت أن تتجاهل الأسئلة التي تطن في أذنيها كطنين سرب من النحل، وتمددت على الأريكة وأغلقت عينيها...

لم تتوقع أن تنام وذهنها مشغول بالعديد من التساؤلات. لكن عندما فتحت عينيها من جديد، رأت دومينيك جالساً على حافة الأريكة وهو ينظر إليها. ورغم أنها لم تستطع أن تفهم التعبير الذي علا وجهه، إلاّ أنّ وضعه أنبأها بأنه أمضى وقتاً يراقبها.

أثارت هذه الفكرة اضطرابها بشكل غريب، وجعلتها تشعر بالضعف، وهذا لم يكن في صالحها.

كان دومينيك قد غيّر ملابسه فارتدى قميصاً أبيض وسترة مسائية أنيقة. وبدا شعره الأسود رطباً، ما يدل على أنه خرج لتوه من الحمام. كان ملياً بالحيوية ووسيماً إلى حد ساحق.

سألها وهو يتفحص وجهها: «كيف حالك الآن؟».

- بخير.
- أتذكّر أنك قلت هذا من قبل، لكن يبدو أن ذلك لم يكن صحيحاً.
- حسناً، إنها الحقيقة الآن.
- جائعة؟
- أكاد أموت جوعاً.
- هذا شيء مطمئن. هل تودّين أن تأكلي هنا...؟

تردّدت، آخر شيء تريده هو أن تجد نفسها تأكل مع زوجته...

- أم تفضلين تناول العشاء في الخارج، إذا سمح لك كاحلك بالتحرك؟
- هل أنت متزوج؟

انطلقت هذه الكلمات من فمها بغير وعي منها. وإذ شعرت بالذعر لوقاحة هذا السؤال، قالت متلعثمة: «أنا أعني إذا كان لديك زوجة وأسرة فيجدر أن تضعهما في اعتبارك...».

فقال بفتور وابتسامة فيها سخرية خفيفة: «أنا لست متزوجاً. أسرتي الوحيدة هي أخي الأصغر مني، دايفيد، وهو غائب حتى الغد».

تملكها ارتياح بالغ بينما عاد يسألها: «ما رأيك إذن؟».

فقالت حابسة أنفاسها: «في الخارج، من فضلك».

على أيّ حال، يسرّها أن تمضي أول ليلة لها في فينيسيا مع دومينيك.

- أواثقة أنت من أن رأسك وكاحلك سيتحملان ذلك؟
- واثقة تماماً.

أحستَ فجأة أنها امتلأت بالأمل والحيوية. وبالرغم من الأسئلة الكثيرة التي تدور في رأسها والتي تبحث عن جواب، إلاّ أنها لا تهتم لذلك الآن.

فدومينيك ليس أعزب فقط، وإنما يبدو أنه خطط، بشكل ما، لكي يجدها مرة أخرى. وهكذا تبدّدت من نفسها خيبة هذا الصباح المرة وكأنها لم تكن.

- دعيني أرى مبلغ ثباتك في الوقوف على قدميك.

أمسك بيدها يساعدها على الوقوف، ثم انتظر ويده تمسك بمرفقها.

سرت في جسدها رعشة كأنها تيار كهربائي، فأحنت رأسها لئلا يرى مقدار تأثرها بلمسته، ثم وقفت كما طلب منها، متجاهلة وخزة الألم الخفيفة التي شعرت بها في كاحلها.

ـ ألست منزعجة؟

فأجابت كاذبة: «لا».

ـ إذن، أظن أنّ بإمكانك الخروج. ثمة حمام من هنا إذا شئت أن تجدّدي نشاطك قبل أن نخرج.

فقالت شاكرة: «آه، نعم. أرجوك».

كان حذاؤها وسترتها وحقيبة يدها موضوعة على كرسي، فحملتها وتبعته.

فتح باباً إلى اليسار وأدخلها إلى حمام مجهز بشكل مترف، فسألته فجأة: «أتظن أن بإمكاني أن آخذ حماماً سريعاً؟».

قال باتزان: «طبعاً، وإذا شئت أي مساعدة ناديني».

وعندما ذهب مغلقاً الباب خلفه، خلعت ثيابها ثم دخلت تحت الدوش.

حاذرت من أن يتبلل شعرها بالماء وهي تغتسل بسرعة. نشفت جسدها بمنشفة سميكة، ثم عادت ترتدي ملابسها، مسرورة لأن سقوطها لم يترك أثراً عليها.

استغرق تمشيط شعرها وتنظيمه أقل من دقيقة، وهكذا أصبحت جاهزة.

عند خروجها من الحمام، ألقى دومينيك من يده الصحيفة التي كان يقرؤها ثم وقف وقال: «أرى امرأة عند وعدها. هل أنت أحسن حالاً؟»

ـ بكثير.

ـ فلنذهب إذن. ولكن أريدك أن تقلّلي من السير على قدميك قدر إمكانك.

اعتقدت نيكولا أنهما سيذهبان سيراً على الأقدام، لكنه رافقها ويده

حول خصرها، إلى ردهة رائعة وباب خرجا منه إلى سلم رخامي.

سارت محاذرة على كاحلها المتورم، إلى مرسى للمراكب حيث ترسو زوارق عدة.

ساعدها دومينيك على الجلوس في الزورق، ثم قاده بنفسه واتجه إلى «ريو دي كافالي» ومنه إلى «القناة الكبيرة».

شعرت نيكولا وكأنها في حلم. أخذت تتأمل جانب وجهه القوي، فيما الهواء يشعث شعره، كما تأملت يديه القويتين اللتين تمسكان بالدفة.

لم تكن تهتم حقاً بوجهتهما، فقد كانت مع دومينيك وهذا يكفي. إلاّ أنها سألته: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

ـ ثمة مطاعم كثيرة رائعة في فينيسيا. لكن في هذه الأمسية الجميلة، أظنك ستحبين أن تأكلي في «ساحة سان ماركو».

تذكرت ما قاله عن ذلك المكان الشهير، فقالت: «أودّ ذلك».

نزلا في «سان ماركو»، لكنه بدلاً من أن يمسك بيدها تأبط ذراعها وهما يسيران في الطريق الدائري.

قال وهما يمرّان أمام واجهة قصر بديع: «هذا هو قصر «دوكالي»، لا بد أنك عرفته. كما لا بدّ من أن تري «بازيليك سان ماركو» و «كامبانيل». لكن إذا كنت لا تفكرين في مغادرة فينيسيا قبل شهر، فيمكن لهذه المعالم أن تنتظر إلى وقت آخر».

كلماته هذه، والطريقة العفوية التي قالها بها، أشعرتها بقشعريرة باردة. لكن في هذه المرحلة المبكرة من علاقتهما. يكفيها الآن أنهما معاً.

معاً مرة أخرى... ولكن كيف عرف مكانها؟ وماذا كان يفعل في «كا ـ مالفازيا»؟ إلا إذا رآها وهي تدخل إليه فتبعها.

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلما لم يقل هذا على الفور؟ ولماذا افترض أنهما جاران وهي لم تخبره عن جون أو عن أنها ورثت المنزل..؟

عادت إليها كل هذه الأسئلة مرة واحدة. فقررت أن تسأله: «دومينيك...».

أدرك ما تفكر فيه بدقة مذهلة، فوضع إصبعه على شفتيها يسكتها: «توضيح الأمور يأتي في ما بعد، بعد أن ننهي العشاء».

تسارعت دقات قلبها وراحت تلهث بسبب هذه اللمسة البسيطة، فأدارت ظهرها لهذا السؤال.

لماذا تفسد السهرة بالقلق؟ ستنبذ كل شيء من ذهنها إلى أن يصبح جاهزاً للكلام. وهي، ببساطة، ستستمتع بالسعادة التي يبدو أن خاتم صوفيا يأتيها بها.

كان المقهى الذي اختاره دومينيك مزدحماً نوعاً ما. لكنهم وجدوا مائدة لهما في طرفة عين فجلسا إليها.

جلسا ينظران إلى مشاهد «سان ماركو» الرائعة، ويستمعان إلى الأوكسترا وهي تعزف وتغني الأغاني العاطفية الإيطالية، وإذا بها تقول مندفعة: «لم أشعر من قبل بمثل هذه السعادة».

أجفل لحظة وبدا عليه الارتباك، لكن ما لبث أن خلا وجهه من أيّ تعبير.

وسألها بأدب: «هل تسمحين لي بدقيقتين؟ عليّ أن أجري مكالمة هاتفية، وقد نسيت إحضار هاتفي الخلوي».

ـ طبعاً.

أخذت تنظر إليه وهو يشق طريقه في الزحام، ثم يتوارى في الداخل.

كان النهار قد أشرف على نهايته، وأخذت الظلمة تزحف بألوانها الزرقاء المعتمة، فأضيئت المصابيح في الساحة.

ـ مساء الخير سنيوريتا. هل تتذكريني؟

التفتت نيكولا فإذا بفتى يقف مبتسماً لها. فبادلته ابتسامته: «طبعاً أتذكرك».

ـ أتسمحين لي؟

وقبل أن تخبره أنها برفقة شخص، جلس على الكرسي المقابل، ونظراته لا تفارق وجهها.

ـ هل وجدت فندقك من دون صعوبة؟

ـ نعم، شكراً.

ـ وأنت هنا وحدك الآن، في أول أمسية لك...

ـ لكنني لست...

فاندفع يقول وكأنها لم تتكلم: «جئت إلى الفندق أبحث عنك فقيل لي إنك لست هناك، وإذا بي أجدك في سانت ماركو وحدك وكأن القدر أراد أن نلتقي».

وأمسك بيدها قائلاً: «فهل تسمحين لي بأن آخذك في الجندول لأريك كم تبدو فينيسيا شاعرية؟».

حاولت أن تسحب يدها، من دون نجاح، وهي تقاطعه: «ماريو، أرجوك أن تستمع إليّ...».

وسكتت عندما رأت دومينيك واقفاً على بعد خطوات يراقبهما بصمت. وأجفلت للغضب البالغ الذي بدا على وجهه.

وإذ رأى ماريو حركتها وتابع نظراتها، هبّ واقفاً وفي نظراته لمحة عتاب. فقالت: «آسفة، حاولت أن أخبرك بأنني لست وحدي».

تقدم دومينيك خطوة وهو يتمتم: «عفواً».

ثم أضاف وهو يعود إلى كرسيه: «يبدو أنني أفزعت ذلك المعجب، فهرب».

ورغم أنه قال ذلك بنعومة، فقد أحست نيكولا أنه ما زال غاضباً، وخطر لها أن لا حاجة به لردّ الفعل المبالغ فيه هذا.

تمنت لو أن هذه الحادثة الصغيرة لم تحدث قط، فقالت بحذر: «لا حاجة حقاً لهذا الحديث. إنه مجرد فتى حمل حقيبتي إلى الباص المائي اليوم».

ـ يبدو أنه... هل نقول... يجرب حظه.

ـ حسناً، أنا لم أشجعه، إذا كان هذا ما تظنه. إنه مجرد غلام.

ـ لا تقولي لي إنك تهتمين للعمر.

بدا صوت دومينيك متوتراً، وقبل أن تتمكن من الإجابة، تابع يقول:

«وإذا كان كل ما فعله هذا الغلام هو حمل حقيبتك إلى الباص، فكيف علم أين تقيمين؟».

تملكها الفرح وهي تراه يتصرف كحبيب غيور، وقالت: «طلب منه كارلو أن يدلني على مكان الفندق...».

رفع دومينيك حاجبيه: «وهذا شخص آخر؟».

- كارلو هو شقيق ماريو، وهو لا يتجاوز الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر. عندما توقفت في «الساحة»، عرض عليّ أن يحرس حقيبتي الكبيرة بينما أركن سيارتي...

وإلى أن انتهت نيكولا من وصف الحادثة، كان دومينيك قد استراح في كرسيه وبدت عليه التسلية.

بعد ذلك بثوانٍ، وصل الطعام فعادت نيكولا إلى هدوئها، وتمكنت من الإستمتاع بوجبتها وبرفقة دومينيك.

وفيما كانا يشربان القهوة، أصبح الجوّ حاراً خانقاً.

نظر دومينيك إلى السماء التي بدت مظلمة ومليئة بالسحب القاتمة، وقال بهدوء: «قريباً ستهبّ عاصفة، لهذا أظن أن الوقت حان لبعض الأسئلة والأجوبة... أتريدين أن تبدأي؟».

فقالت بحيرة: «لا أدري كيف عثرت عليّ... أفترض أنك رأيتني في «كامبو دي كافالي» فتبعتني إلى «كلا- مالفازيا» فهل هذا صحيح؟».

- كلا، ليس صحيحاً.

- ألم تتبعني؟

- لا.

- إذن، لا بد أنك لاحظت أن الباب مفتوح، ولأنك تعلم أن المنزل خالٍ، فقررت أن تدخل لترى ما الأمر؟

ومرة أخرى هزّ رأسه ولاحت على وجهه ابتسامة عابثة.

- لكنني سمعته ينصفق عندما وصلت إلى قمة السلم.

- أنا لم أدخل من ذلك الطريق.

- وكيف دخلت إذن؟

- ذات يوم، كان «كلا- مالفازيا» جزءاً من قصر «دي كافالي»...

تذكرت نيكولا أن تلك السيدة التي التقتها قرب القصر أخبرتها بذلك.

- وعندما فصلا عن بعضهما، تُرك بينهما باب وأنا دخلت من ذلك الباب.

لكنها لم تقتنع: «هل تحاول أن تخبرني بأن لقاءنا هناك صدفة؟ لا بد أنك علمت أنني هناك...».

فلمعت عيناه: «نعم، علمت بذلك. أو على الأقل كنت أعلم أنك ستحضرين».

وعندما رأته يعبث بمشاعرها، قالت باختصار: «إذن، أردت أن تنتظرني لتخيفني حتى الموت».

- لا. لم يكن هذا هدفي. كنت سأنزل لأقابلك، لكنني لم أستطع. فما أن دخلت الممرّ حتى أدركت أنك قريبة مني ما جعلني أشعر بالارتباك مثلك تماماً. لا أظن أنّ هناك نساءً كثيرات يجرؤن على الدخول إلى بيت غريب في الظلام لاستكشافه.

- وكيف علمت أنني قادمة إلى «كلا- مالفازيا»؟ أنا لم أذكر ذلك.

ثم خطرت لها فكرة: «وكيف علمت بالضبط متى سأكون هناك؟».

- وضعتك تحت المراقبة.

فسألته ببلادة: «ماذا؟».

فكرّر كلامه بهدوء. وخنقها السخط: «منذ متى؟».

فاعترف من دون إبداء أي ذرة من الندم: «طوال الأسبوعين الماضيين».

فقالت بحيرة: «لكننا لم نعرف بعضنا البعض إلا منذ يومين».

- نعم، تقابلنا أمس فقط، لكنني سمعت بك منذ فترة.

- ماذا تعني بقولك (سمعت بي)؟ ولماذا وضعتني تحت المراقبة؟

- بما أننا سنصبح جارين، إلا إذا قررت أن تبيعي المنزل، أردت أن أعرف بالضبط ما الذي تهدفين إليه، وأي نوع من الأشخاص أنت.

- وكيف عرفت أننا سنصبح جارين؟ أنا لم أقل قط إني أملك بيتاً في فينيسيا.

- ظننتك ستخبرينني تلك الليلة حين التقينا في «سكلوس لينز».

تذكرت مدينة «إسبراك» والمشاعر التي سيطرت عليها هناك، فقالت بصعوبة: «إذن، لم تكن إقامتك في الفندق نفسه، وفي الغرفة المجاورة لغرفتي، من باب المصادفة؟»

- لا. خططت لذلك كله مسبقاً.

شعرت بدمها يستحيل ثلجاً في عروقها، وسألته: «كيف رتبت هذا الأمر؟»

- السنيور مانسيني رتّب كل شيء...

ذكر السنيور مانسيني جعل الأمر واضحاً لنيكولا وأدركت كيف علم دومينيك أنهما سيصبحان جارين... وتذكرت إصرار المحامي بأدب على أن يختار لها الفنادق ويقوم بكافة الحجوزات. وعضت شفتها.

أضاف دومينيك بابتسامة خفيفة: «هذا بالإضافة إلى المصادفة التي سمحت لنا بالتعارف».

- وماذا لو لم يعلق كعب حذائي في الرصيف، في تلك اللحظة التي كنت تراقبني فيها؟

- كنت سأجد طريقة أخرى للتعرف إليك. لكن عندما تدخّل القدر...

***

٥ - وهكذا التقينا

قالت وقد ازداد إحساسها بالبرد رغم حرارة الجوّ: «لا بد أنك كنت تتبعني، لذا هرعت لمساعدتي».

فقال بهدوء: «هذا صحيح. حينذاك، أردت أن أتصل بك شخصياً، وكلفت مولر بمهمة أخرى».

مولر... حين ذكر الاسم، ارتسمت في مخيلتها صورة ذلك الرجل الأصلع الطويل الوجه، الذي كان يقرأ صحيفة في فندق «بريجنزير والد». وصورة شخص آخر قصير القامة يحدّق إليها في ساحة «بيازال روما». إنه الرجل الذي كان يحمل هاتفاً خلوياً... وقد أعلم دومينيك بموعد وصولها، ولا بد أنه من أغلق الباب بعد دخولها.

ارتجفت نيكولا، فقد تبين لها دومينيك كان يرصد تحركاتها وأنه كلف رجلاً بمراقبتها وبنقل أخبارها إليه. أما ما لم يكن واضحاً على الإطلاق فهو لماذا... لماذا قام بذلك؟

قالت بصوت جعلته ثابتاً قدر المستطاع: «يبدو أنك تكلفت الكثير من المال والمشقة لكي تراقبني..؟»

فقاطعها: «وأنت تريدين أن تعرفي السبب؟»

- نعم.

- ظننتك تكهنت بذلك.

- من الواضح أن للبيت علاقة بذلك. لكنني لا أفهم ما الذي يهمك إذا ما كنت سأصبح جارتك.

لوى شفتيه بابتسامة لا بهجة فيها: «بل أكثر من هذا بقليل. فهناك احتمال أن تكوني، بطريقة غير مباشرة، زوجة أبي».

- زوجة أبيك؟

- افترضت أنك تزوجت جون.

- تزوجت جون؟ كلا طبعاً. يا لها من فكرة مضحكة!.

كانت ردّة فعلها غريزية، ما جعل دومينيك يشعر للحظة بالارتباك: «إذن، لم تكن لديك نيّة الزواج منه؟»

- طبعاً لم تكن لديّ النيّة... ولكن، لنفترض أن النيّة كانت موجودة، فكيف يمكن لذلك أن يجعلني...

وسكتت فجأة، فانتظر وعيناه على وجهها.

- هل صوفيا أمك؟

- نعم.

- لكن جون لم يكن أباك.

- هذا صحيح أيضاً. لقد تزوجت أمي مرتين.

- أعرف هذا، فقد أخبرني جون. لكنه لم يذكر قط أن زوجته كان لديها أولاد.

- هذا ما ظننته. حتى أنّ عينيك لم تطرفا حين ذكرت اسمي. كما أن وصفنا بالأولاد يكاد لا ينطبق علينا. كان دايفيد في الثالثة عشرة وأنا في الحادية والعشرين عندما تعارفا وتزوجا. وقد شكّل الأمر صدمة لي...

شعرت بأنه تمنى أن يمنع زواج جون بصوفيا.

- علمت يومها أن أمي تعرفت إلى شخص ما، لكنهما لم يعرفا بعضهما بعضاً لأكثر من أسابيع، ولم أدرك أن الأمر جدّي بينهما.

أنبأها سكوته المفاجىء بأن ثمة أمر لا يود الإفصاح عنه، فسألته: «ألم تكن تحب جون؟»

تجنّب السؤال وأجاب مراوغاً: «لا يهم، سواء أحببته أم لا. فأمي لم تطلب موافقتي».

سألته بحذر بالغ: «لو أنها سألتك، فهل كنت ستوافق؟»

- لا.

جاء جوابه قاطعاً: «حدث كل شيء بسرعة. فأمي كانت وحيدة والديها، لذا ورثت ثروة والدها. وقد اجتهد أبي، لمضاعفة ثروتها. عندما مات، كانت أمي إحدى أغنى النساء في فينيسيا».

تملك نيكولا الانزعاج وقالت بثقة تامة: «كان جون يحبها جداً. لا أصدق أنه تزوجها من أجل أموالها».

- من المحتمل أن أكون مخطئاً، لكن الأمور بقيت مضطربة بيننا لفترة طويلة. وعندما عدت من أسفاري، حصل بيننا أيضاً بعض الخلافات. ولهذا السبب تم تقسيم القصر ليصبح هناك ما يسمى «كا- مالفازيا».

- أنا واثقة من أنهما كانا سعيدين جداً فيه.

وكأنما كان دومينيك يجاهد ليبدو عادلاً، إذ قال: «كان يبدو عليهما ذلك، وعندما ماتت بدا جون محطماً».

وأضاف ساخراً: «رغم أن السبب قد يكون خسارته السيطرة على ثروتها. إذ لم يبقَ له سوى ثلث ثروتها، أما الثلثان الآخران فبقيا في الأسرة. أصبح القصر وأحد الثلثين من نصيبي أنا، أما ما تبقى من الثروة فلا يزال محفوظاً كوديعة لدايفيد إلى أن يبلغ الثلاثين من عمره».

- هل يعني ذلك أنك كنت في الثلاثين حين ماتت أمك؟

فأجاب بفتور: «كنت في السادسة والعشرين، وغنياً من كدّ يميني. أما دايفيد فكانَ في الثامنة عشرة من عمره وهو لا يزال طائشاً حتى الآن. أرادت أمي أن تصون ثروة الأسرة».

وفجأة، أدركت نيكولا مغزى هذا الكلام، فجمدت مكانها. بينما تابع دومينيك: «لهذا السبب يفترض أن تعود الأملاك التي ورثها جون تيرنر إلى الأسرة بعد أن يموت».

فقالت نيكولا ببطء بينما أحست بانقباض في قلبها: «آه، فهمت».

بهذه الكلمات القليلة، جعل دومينيك سبب اهتمامه الحقيقي بها

واضحاً. وبدّد أيّ أمل لها في تكوين مستقبل معه.

أرادت أن تلقي رأسها بين يديها فوق المائدة وتجهش بالبكاء لتريح قلبها الحزين.

بدا لها أنها لن تحصل على المنزل أو المال الذي تركه لها جون في وصيته... لكن لماذا لم يذكر لها المحامي ذلك؟ أو حتى السنيور مانسيني الذي يعمل لحساب دومينيك كما يبدو؟

إنما، لعلّ ادّعاء دومينيك يستند إلى العادات الموروثة أكثر مما يستند إلى القانون.. وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعطي للأمور أبعاداً أخرى.

ومع أنها لا تود أن تحرم أحدهم من إرث كان يأمل بالحصول عليه، إلا أنها هنا لا تحرم أحداً. فدومينيك حصل على الثلث وكذلك أخوه. كما اعترف دومينيك بأنه كان غنياً من كدّ يمينه، فإذا كان يريد حصة جون فهذا فقط ليزيد ثروته التي هي كبيرة أصلاً...

ورغم أن نيكولا تبدو رقيقة وهادئة في العادة، إلا أنها ليست في الواقع ضعيفة على الإطلاق. فلقد ورثت عن جدتها قوة داخلية، وقلباً من الفولاذ إذا ما اضطرتها الحياة إلى مواجهة المصاعب.

انتصبت في جلستها من دون وعي: «هل قلت إنه يفترض أن تعود أملاك جون إلى الأسرة؟».

- نعم.

- وأنت تلومني لأن هذا لم يحصل؟

- ليس تماماً.

وأضاف ساخراً: «على الأرملة الشابة أن تفكر في مستقبلها».

لم يكن هذا هو الجواب الذي ترجوه. وكرهت ما يتضمّنه من معانٍ مبطنة، فسألته بلهجة آمرة: «ما الذي تعنيه بالضبط بكلمة (يفترض)؟»

- إنها تعني (ينبغي).

- أتعني بذلك أمواله كلها؟ لكن من المؤكد أن جون كان لديه أموال من كدّ يمينه. أخبرني مرة أن بيته اللندني، الذي باعه حديثاً، كان لأسرته، وقد

ورثه عن والديه.

لم يبدُ عليه الرضى وهو يقول: «حسناً، إذا لم يكن كله، فما تركته له أمي على الأقل، بالإضافة إلى «كا- مالفازيا». ذلك أمر مفهوم».

- مفهوم من قبل من؟ من قبلك أنت؟ أم من قبل كل من هم على علم بهذا الأمر؟

- من قبل من هم على علم به، على حد علمي.

- على حد علمك؟ ألم تتحدث إلى جون عن هذا؟

فقال باختصار بدا لها غير لائق على الإطلاق: «لا. لم أفعل».

- ولا إلى أمك؟

- كانت أمي تفضل إدارة شؤونها بنفسها.

- وهل كانت ستعتبر ذلك تدخلاً في شؤونها؟

رأت نيكولا فكه يتوتّر فأدركت أنها لمست وتراً حساساً.

تجاهل دومينيك سؤالها وقال: «كانت أمنيتها أن تبقى أملاك لوريدان سليمة. وهذا يعني أن حصة جون وخاصة المنزل يجب أن تعود إلى الأسرة».

- هل ذكر هذا الشرط في الوصية؟

- كان ينبغي أن يذكر.

هذه الكلمات الأربع منحت نيكولا إجابة شافية عن سؤالها. فأصبح بإمكانها أن تحارب على أرض أكثر ثباتاً: «لو كانت أمك ترغب في أن تعود حصة زوجها إلى الأسرة، لذكرت ذلك في الوصية».

قال دومينيك فيما بدت عيناه ببرودة الثلج: «أفترض أنها كانت تعتمد على احترامه لرغباتها. وربما لم تشعر حينذاك بضرورة ذكر الأمر في الوصية. فجون لم تكن لديه أسرة، أو أولاد أو وريث. من كان يظن أن فتاة في سن ابنته، لو كان لديه ابنة، ستسلب عقله؟»

فقالت ببرودة: «لقد فهمت الأمور بشكل خاطىء فأنا لم أسلب عقل جون، ولم يكن بيننا ذلك النوع من العلاقة على الإطلاق».

- ألم تحبيه؟

www.elromancia.com

- كان جون شخصاً غير عادي بالنسبة إليّ، وكنت أهتم به، لكنني لم أحبه. على الأقل لم أحبه بالطريقة التي تعنيها. كنا فقط صديقين حميمين.

التوت شفتا دومينيك بشبه ابتسامة ساخرة فقالت نيكولا مؤكدة: «إنها الحقيقة، صدّقني...».

وما لبثت أن غضبت من نفسها لموقفها الدفاعي.

- كم طالت صداقتكما؟

فأجابت وهي مقتنعة بأنه يعرف الجواب مسبقاً: «ستة أشهر».

- هل عشتما معاً؟

وقع هذا السؤال المفاجيء على مسامعها كلسع السوط، فالتهبت عيناها الخضراوان: «لا. لم نعش معاً! الفكرة بأكملها ليست منطقية! كان جون يكبرني في العمر».

- وما دخل العمر في هذا؟ بإمكان بعض النساء أن يجذبن الرجال في أي عمر. من السادسة عشرة حتى الستين... سبق وبرهنت ذلك بنفسك.

جعلتها الفقرة الأخيرة تجفل. إذن، فهو يظنها من هذا النوع من النساء؟ وتملكها اليأس. يبدو أن تلك الحادثة الصغيرة التي حصلت مع ماريو، عززت لسوء الحظ، هذه الفكرة لديه.

ولم تكن ردّة الفعل التي أبداها دومينيك حينها تدل على الغضب الغيور كما ظنت، إنما تعبر عن اشمئزازه منها.

عضت شفتها، وقالت بصعوبة: «يمكنني أن أفهم إلى حد ما، لماذا تظن ذلك. لكنك مخطىء تماماً. أنا لست من هذا النوع من النساء على الإطلاق. أما بالنسبة إلى علاقتي بجون، فهي وكما أخبرتك لتوّي، ليست من ذلك النوع من العلاقات. أثناء الشهور التي تعرفنا فيها إلى بعضنا البعض، لم نجتمع سوى ثلاث أو أربع مرات. وكان أحياناً يتصل بي عبر الهاتف أو يكتب إليّ. ولم نتناول العشاء معاً سوى مرة واحدة فقط وقد حدث ذلك صدفة حين كنا نحن الإثنان، في لندن في الوقت نفسه...».

- هل تتوقعين مني حقاً أن أصدق أن هذا هو كل ما كان بينكما؟ وأن

علاقتكما كانت بريئة تماماً؟

- سواء صدّقتني أم لا، فهذه هي الحقيقة.

- ولماذا يترك رجل مثله كل ما يملكه لفتاة لم يقابلها سوى مرات معدودة؟ إلا إذا كان مسلوب العقل، والفتاة... هل نقول شجعته، بوعدها له بأن تتزوجه؟...

كان الجوّ رطباً خانقاً، ما جعل نيكولا تشعر بالضيق فدفعت إلى الخلف خصلة من شعرها كانت قد أفلتت والتصقت بخدها، ثم قالت منكرة بحزم: «لم يكن مسلوب العقل، وقد سبق وأخبرتك أنه لم يكن بيننا أيّ موضوع زواج على الإطلاق».

- بماذا وعدته إذن؟

فقالت بضجر تقريباً: «لم أعده بشيء. كان جون يحب زوجته للغاية و...».

- قد يكون ذلك صحيحاً. لكنها ماتت منذ أكثر من أربع سنوات...

- صحيح أنها ماتت منذ أكثر من أربع سنوات، لكنه كان لا يزال يحبها ولم يتعوّد على فكرة موتها.

- لكنه لم يكن عجوزاً، بل في أواخر الخمسينات من عمره، ومن المحتمل أن يكون قد فكر في اتخاذ حبيبة. ربما شعر أنه بحاجة إلى امرأة في حياته...

فهزّت رأسها: «لا شك بأنك تعلم أن جون كان يعاني من مرض في قلبه».

ورغم رؤيتها الدهشة على وجه دومينيك وكأنه لم يكن يعلم بالأمر، تابعت تقول: «ما كان بحاجة إليه حقاً هو صديق يتفهمه. كان يحتاج إلى شخص مرّ في ظروف مشابهة لظروفه بحيث يتفهم خسارته وما يعاني من ألم وحزن...».

كان الرعد يقصف والبرق يلمع من بعيد، وبدا الجوّ وكأنه يحبس أنفاسه، في انتظار العاصفة القادمة.

أحست برأسها يضج بصداع عنيف، وشعرت بعدم القدرة على المواجهة أكثر، فوقفت وتناولت حقيبتها: «المعذرة، لقد تعبت وأود أن أذهب».

وقف دومينيك على الفور وقد بدا، مرة أخرى، ذلك المضيف المهذب: «طبعاً، وسأوصلك بنفسي».

فقالت بالتهذيب مفرط: «شكراً، لكن لا حاجة لذلك. يمكنني أن أستقل سيارة أجرة».

فقال بالتهذيب نفسه: «هذا غير ممكن. ولن أسمح بحصوله».

أشار إلى النادل ودفع الحساب ثم قدم لها ذراعه.

كان كاحلها قد تصلب وأخذ يؤلمها، لكنها تظاهرت بعدم رؤيتها ذراعه الممدودة نحوها وأسرعت، لكي تبتعد عنه، باتجاه مرسى القوارب غير مبالية بالألم الذي تشعر به.

حافظ دومينيك على المسافة بينهما من دون جهد. سارا تفصل بينهما مسافة قدم واحدة، إلى حيث كان الزورق راسياً. قفز هو أولاً، ثم استدار إليها وقد بدا عليه التحدي. وتملكها إغراء أن تتجاهل اليد التي مدّها إليها.

لكن الزحام في البحيرة جعل سطح المياه يتحرك بقوة وإذا بالزورق الصغير يعلو ويهبط كسدادة فلين عائمة في بحر هائج.

ومض البرق فبدا لها دومينيك بوضوح. كان يقف في الزورق بثبات موازناً نفسه برشاقة، جاعلاً الأمر يبدو سهلاً.

لم تكن نيكولا واثقة من أن بإمكانها أن تخطو إلى الزورق من دون عون. وإذا خذلها كاحلها، فسينتشلونها من الماء في حالة يرثى لها... ما يعطيه فرصة ليبدو أنه المنتصر.

أخذت يده معترفة بالهزيمة. وحين وضعت قدمها في الزورق، لم تعد واثقة ما إذا كان الزورق مال إلى أحد الجوانب، أم أن دومينيك تعمد أن يجذبها نحوه، إذ فقدت توازنها كلياً وسقطت عليه.

احتمل وزنها بسهولة، وللحظة أو اثنتين، شدّها إلى جسده القوي

العضلات.

أخيراً تمكنت من إيجاد موطىء قدم لها، فجذبت نفسها بعيداً عنه، ثم جلست مرتطمة بالمقعد، مسرورة لأن الظلام يخفي توهج وجهها.

ضحكته الناعمة أقنعتها بأن الأمر لم يكن مصادفة، بل طريقته في الثأر منها. وعندما بدأت رحلتهما، جلست نيكولا صامتة كالحجر.

لم يسبق لها أن ذكرت أمامه مكان إقامتها، لكن بدا لها أنه يعرف ذلك تماماً.

صوت الرعد المنخفض ووميض البرق البعيد كانا يشيران إلى أن العاصفة ما زالت بعيدة. راح دومينيك يسلك الأقنية الهادئة ويقود القارب من دون سرعة. وعندما تقاطع طريقان مائيان، أوقفتهما إشارة السير الحمراء. وفي تلك اللحظة نبهت الحاسة السادسة نيكولا، فسألته: «هل نحن في الطريق الصحيح؟»

رأت أسنانه البيضاء تلمع بابتسامة ساخرة: «قررت أن أسلك الطريق الهادئة، لأنها في الليل أكثر شاعرية».

التزمت الصمت، متمنية لو أنها لم تطرح عليه هذا السؤال.

انتظرت لترى الجسر المحدودب المميز الذي سبق أن عبرته ذلك المساء، والمدخل الرئيسي المؤدي إلى الفندق، إلا أن الدهشة تملكتها عندما أوقف دومينيك المحرك فجأة ثم دخل إلى مرآب مضاء.

عندما أخذ دومينيك يربط الزورق، صرخت نيكولا به: «ما الذي تفعله؟ هذا ليس الفندق».

فرد برصانة: «لم أفكر قط في أنه الفندق».

اعترضت، مجاهدة في إبعاد نبرة الذعر عن صوتها: «لكن يفترض بك أن تأخذني إلى حيث أقيم».

فقال وهو يمدّ يده ليساعدها على الخروج من الزورق: «وهذا مكان إقامتك».

نزعت يدها من يده وهي تقول بمرارة: «ما أعرفه هو أن هذا المكان هو

مكان إقامتك أنت وليس مكان إقامتي».

تجاهل اعتراضها واستدار يصعد السلم داخلاً إلى القصر، فلم تر بداً من أن تتبعه.

عندما وصلا إلى الردهة، سألها بأدب: «أتودين أن تأتي إلى مكتبي حيث نتناول شراباً قبل النوم؟»

فأجابت بغيظ: «لا. لا أريد. أريد أن أعود إلى الفندق. إذا لم تأخذني فسأستقل زورق أجرة».

ـ حسناً، لا يمكنك...

ـ بل سأذهب...

ـ لا أنصحك بذلك. نحن الآن في أوج موسم السياحة ومن الصعب أن تجدي غرفة في فندق.

ـ لديّ غرفة.

ـ لم يعد لديك. فقد أبلغتهم أن بإمكانهم أن يؤجّروها لأي شخص آخر.

ـ بماذا أبلغتهم؟

ـ أوضحت لهم أن حادثاً بسيطاً وقع لك، ولهذا دعوتك للإقامة في قصر «دي كافالي».

صرخت وقد أثارت هذه الفكرة سخطها: «لا أريد أن أبقى هنا. كما أن كل أمتعتي ما زالت في الفندق».

فهز دومينيك رأسه: «طلبت منهم أن يحضروها إلى هنا. ستجدين أمتعتك وكل ما تحتاجين إليه في غرفتك».

ـ لا. لا أريد أن أبقى! سأحضر أمتعتي وأخرج.

ـ الساعة الآن الثانية عشرة تقريباً ولا يمكنك أن تتجولي في أنحاء فينيسيا وحيدة في هذا الوقت من الليل بكاحل مصاب. ولا تدّعي أنه بخير لأنني أعلم جيداً أنه يؤلمك.

ـ أرجوك يا دومينيك...

فقال هازلاً: «هل تزعجك فكرة أن تكوني ضيفتي، إلى حد يجعلك تتضرعين؟»

ـ لا أريد أن أكون ضيفة رجل يعتقد أنني لست سوى امرأة من دون قلب، تبحث عن الذهب.

وتابعت وقد تهدّج صوتها: «كما أنني لا أعلم لماذا تريدني هنا».

لكنها أدركت السبب الكامن وراء تصرفه هذا، فوجودها في منزله سيسمح له بإبقائها تحت المراقبة بشكل أسهل...

ـ دعينا فقط نقول إنك تجذبينني.

بدا الصدق في صوته فتخلت نيكولا، مؤقتاً، عن دفاعاتها. اغتنم دومينيك الفرصة، فأمسك بمرفقها يدفعها إلى مكتبه، حيث ساعدها في خلع سترتها، قبل أن يعود فيدفعها برفق لتجلس على الأريكة الجلدية.

كانت غرفة المكتب مضاءة بمصابيح خافتة، ما أسبغ عليها جواً أليفاً مريحاً، كانت نيكولا تفتقده من قبل.

جلس القرفصاء عند قدميها وخلع فردتي حذائها قائلاً: «والآن، دعيني ألقي نظرة على كاحلك».

كان كاحلها قد تورّم بشكل واضح، وأصبح من التصلب والألم بحيث اضطرت لأن تعض شفتها، عندما أخذ يجسّه ويضغط عليه بأصابعه.

قال دومينيك بانزعاج: «كان عليّ أن أكون أكثر تعقلاً وأبقيك في البيت لتستريحي...».

وبالرغم من كل ما حصل، فإن رؤية رأسه المنحني فوق قدمها، جعلت أغرب المشاعر تتملكها... فشعره الأسود الكث الذي يميل إلى التجعد، ورقبته السمراء يفيضان بالجاذبية...

رفع بصره وأضاف: «أظن أن كاحلك يحتاج إلى كمادات باردة».

تمهلت عيناه على وجهها، كأنه يقرأ أفكارها. شعرت نيكولا بوجهها يتوهج احمراراً، ما جعله يشعر بالتسلية، وبمتعة لم يتوقعها. وأخيراً وقف قائلاً: «سأغيب دقيقة فقط».

ثم خرج تاركاً الباب مفتوحاً، بينما بقيت هي وقد شعرت بالغضب من نفسها، وتمنّت بحرارة لو أن بإمكانها أن تنهض وتغادر المنزل. ولكن، حتى لو سمح لها دومينيك بذلك، فلا يمكنها أن تتجول في مدينة غريبة من دون هدف بينما العاصفة تقترب.

ورغم أنها تكره فكرة السجن، إلا أن بقاءها هنا أكثر أماناً. لكن، هل هذا صحيح حقاً؟ يعتمد الأمر على نوع الأمان الذي تفكر به...

عاد دومينيك بسرعة، وفي يده كمادة باردة ورباط فلفّ كاحلها بكفاءة أدهشتها.

ـ ها قد انتهيت. قريباً ستشعرين بالتحسن.

أجفلها صوته: «شكراً».

ـ والآن، ما رأيك بشراب ساخن قبل النوم؟

فهزّت رأسها، متلهّفة إلى الهرب: «لا أظنّ ذلك. في الواقع... أنا جاهزة للنوم».

ـ سيصبح النوم أسهل إذا رفعت قدميك إلى أعلى وارتحت نصف ساعة وأنت ترشفين الشراب.

ورغم أن كلماته بدت مجرد اقتراح إلا أن نيكولا أحست أنها أمر عليها الإذعان له، وأنها إذا لم ترفع قدميها فلا شيء يمنعه من أن يرفعهما بنفسه. وهكذا أطاعته كارهة.

ـ ماذا تريدين إذن؟

فهزّت رأسها: «بعض الشاي، أرجوك».

وبعد لحظة عاد إليها بفنجان من الشاي: «ما رأيك؟».

أخذت رشفة منه وقالت: «لذيذ».

أحاطت الفنجان بكفيها الساختين، وهي تشعر بالتوتر لأنه يراقبها.

قال دومينيك وهو يعقد حاجبيه قليلاً: «يبدو وكأن الصداع عاودك».

ـ هذا صحيح.

أخرج من جيبه زجاجة دواء وأعطاها حبتين: «الأفضل أن تأخذي

حبتين أخريين».

وضعت نيكولا الحبتين في فمها وأخذت رشفة أخرى من فنجانها، لكنها لم تستطع بلعهما. ارتجفت لمرارة طعمهما. وعندما رأته يتأملها سألته: «ألا تعترض مديرة منزلك على إحضارك ضيفة غير متوقعة؟»

ـ أبداً، لسبب ما، رحبّت بك.

ـ كيف عرفت؟

ـ لأنها رغبت في إعداد غرفة لك بنفسها. وعندما اتصلت بها لأسأل إن كانت أمتعتك قد وصلت، طمأنتني.

خلع سترته وحلّ ربطة عنقه من دون أن ينزعها، ثم فك الزرين العلويين من قميصه الأبيض كاشفاً عن عنقه الأسمر.

ارتجفت نيكولا وقد تذكرت بوضوح كيف تعلقت بهذا العنق حين عانقها عندما كانا معاً في الفندق.

لمح استغراقها في التفكير فتملكه الفضول وأخذ يتأملها. بدأ البؤبؤ يتسع في عينيها الشاردتين، وانفرجت شفتاها الناعمتان واحمرّت وجنتاها. بدت عفوية وجذابة، وكأنها امرأة متلهفة للقاء حبيبها.

كان لمظهرها هذا تأثير عليه. أرغم نفسه على كبح مشاعره، وأخذ يتساءل من هو الرجل الذي تفكر فيه بهذا الشكل؟ أتراه زوجها؟ لكنه شكك في ذلك.

طرفت نيكولا بعينيها فجأة، وعادت إلى الواقع لتجد عينيه مسمّرتين على وجهها، فخفضت بصرها على الفور.

كان أنفها الصغير المستقيم يلمع، وعلى جبينها قطرات من العرق. أما شعرها القمحي اللون فكان يعكس نور المصباح الذي تجلس تحته ويلقي بظلال أهدابها على وجنتيها.

فكر دومينيك في أنها حقاً فاتنة للغاية. لا عجب في أن جون كان مفتوناً بها. ليتها لا تبدو بريئة بهذا الشكل!..

ولكن كل شيء يشير إلى أنها بعيدة عن البراءة، فهي ماكرة ومناورة

بارعة للغاية تستغل جمالها لمصلحتها.

وتنهد من دون وعي منه.

اتجه نحو جهاز لصنع القهوة وأحضر فنجاناً صغيراً، قبل أن يجلس قبالة ضيفته.

أخذا يرشفان شرابهما بصمت للحظة، ثم عاد دومينيك ليكمل حديثهما السابق: «إذن، كان جون يعاني من مرض في قلبه؟ ألم يكن علاجه ممكناً؟»

ـ لا. كان موته مسألة وقت. ألم تكن تعلم؟

فهزّ رأسه: «لكنني أرى في معرفتك بذلك شيئاً مفيداً..».

إذن، يظنها أوقعت جون في شباكها لأنها كانت تعلم أنه على وشك الموت!

وبعد لحظة، تابع يقول بفتور: «ما إن انتهت جنازة أمي، حتى أقفل جون المنزل ورحل. باستثناء حديث قصير تبادلناه يومها، لم يحصل بيننا أي اتصال منذ ذلك الحين».

لا عجب في أن جون لم يذكر أن لديه أسرة. من الواضح أنه لم يكن بين الجانبين مودة متبادلة، وبعد موت زوجته لم يعد هناك سبب يجعله يبقى في فينيسيا.

ـ أين ومتى تعارفتما؟

اخترق سؤال دومينيك أفكارها، فاستجمعت شتات نفسها وأجابت: «في باريس. في نهاية تشرين الثاني الماضي».

ـ أخبريني عن ذلك، أنا متشوق لمعرفة التفاصيل.

ـ ليندا أتكن، وهي إحدى زميلاتي في العمل، كانت تنظم مؤتمراً في باريس. وقد أدخلت المستشفى لإصابتها بالتهاب رئوي... ضم المؤتمر خمسين مندوباً، وكان عليهم أن يبدؤوا اجتماعاتهم في الصباح التالي. أما بالنسبة لي، وأنا التي لم أظهر في الصورة قبل آخر النهار، فلا يزال أمامي الكثير من العمل. كان مكتبي يقع في الطابق الأرضي،

بجانب قاعة المؤتمر، ما يسمح لي بمتابعة التحضيرات عن قرب. ولسوء الحظ، جعلتني بعض مشاكل اللحظة الأخيرة أبقى في المكتب إلى ساعة متأخرة.

كنت على وشك الصعود إلى غرفتي التي تقع في الطابق الرابع، شاعرة بالتعب والبرد، عندما اكتشفت أن ثمة عطل في الكهرباء منع المصاعد من العمل. وكان هذا يعني أن ليس لدي خيار سوى أن أصعد إلى غرفتي مشياً على القدمين..

* * *

في ذلك الوقت، كان المكان خالياً ساكناً. وما أن أوشكت نيكولا على الوصول إلى الطابق الرابع حتى رأت رجلاً متهالكاً على السلم، فقفزت مجفلة.

كان الرجل يرتدي بذلة رمادية اللون وربطة عنق، ويجلس على إحدى درجات السلم، مستنداً إلى الجدار محني الرأس.

أول ما خطر لنيكولا أنّ عليها أن تنادي شخصاً ليساعدها. لكنها لم تجد أيّ موظف ليلي. وعندما تردّدت، تمتم الرجل يقول: «صوفيا»، ثم رفع رأسه. بدا الرجل وسيم المظهر، في أواخر الخمسينات من عمره، ذا وجه نحيل كوجه زاهد، وشعر كثيف خطه الشيب، وعينين عسليتين.

اتضح لها على الفور أنه مريض وليس ثملاً، فوجهه بالغ الشحوب وشفتاه زرقاوان.

سألته بالإنكليزية: «كيف يمكنني أن أساعدك؟»

كانت على وشك أن تكرّر السؤال بالفرنسية حين أجاب: «الحبوب».

ـ في أي جيب؟

فأشار بارتباك: «العليا، بالداخل...».

بدت قسمات وجهه تتلوّى ألماً، فيما أنفاسه تحدث خريراً في حلقه.

جلست نيكولا إلى جانبه على الرخام البارد، وأخذت تتحسس جيب

www.elromancia.com

سترته الأعلى حيث أشار لها. وتنهدت بارتياح حين أطبقت أصابعها على زجاجة بلاستيكية صغيرة.

ـ أتريد حبتين؟

ـ نعم.

وضعت في كفها حبتين ضئيلتي الحجم وأخذت ترقبه وهو يضعهما، بصعوبة، تحت لسانه.

تمنّت لو أنها تحمل هاتفها الخلوي، ثم قالت بسرعة: «سأذهب لأطلب الإسعاف».

وعندما نهضت أمسك بيدها بشيء من القوة اليائسة، يجرها لتجلس مرة أخرى: «إبقي معي، أرجوك».

كانت أصابعه الممسكة بأصابعها باردة كالثلج.

تساءلت كم من الوقت أمضى هنا، وسألته: «أنت حقاً بحاجة إلى معونة طبية».

فتمتم متلعثماً: «لا... لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً».

خشيت أن يقع على درجات السلم إذا ما تركته، فبقيت جالسة بقربه.

أمسكت يده بيديها الإثنتين، محاولة أن تدفئهما بينما أخذت تتذكر كيف يمكنها أن تقوم بإسعافه، إذا ما كان بحاجة إلى ذلك.

ولكن بدا أن الحبتين كانتا كافيتين ليتحسن حاله. وبعد قليل، أخذ ذلك الشحوب المخيف يتلاشى وعاد إلى الرجل لونه الطبيعي. لكن بالرغم من ذلك بدا لها وجهه متوتراً بارداً.

كان البرد على السلالم قارساً، ما يعني أن جهاز التدفئة المركزي توقف عن العمل، في الوقت الذي توقفت فيه المصاعد.

أحست هي نفسها ببرد شديد، فتحوّل اهتمامها إليه، شاعرة أن من الأفضل له أن يأوي إلى فراشه. وسألته: «كيف حالك؟»

ـ أحسن. أحتاج فقط إلى الاستلقاء.

ـ في أي طابق تقع غرفتك؟

ـ في الطابق السابع.

فقالت، وقد أدركت أن لا سبيل إلى أن يصعد ثلاثة طوابق أخرى: «من الأفضل أن تستلقي في غرفتي».

وعندما يستلقي بأمان، ستذهب لتطلب العون.

وقالت تطمئنه: «إنها قريبة جداً. فما أن نجتاز هذا الباب حتى نصل إليها».

وبمساعدتها، وقف على قدميه وهو يرتعش، فقالت له: «يمكنك أن تتكيء عليّ. أنا أقوى مما أبدو».

ورغم أنه كان طويلاً للغاية، إلاّ أنّ جسمه نحيل.

عندما أصبحا في الغرفة، قادته إلى السرير ورفعت الغطاء. جلس الرجل على حافته، فخلعت له حذاءه وجوربيه، قبل أن تساعده على خلع سترته وربطة عنقه وفتح زريّ قميصه العلويّين.

وعندما استلقى على السرير ساعدته قدر إمكانها ليتمدد بارتياح، ثم جذبت الغطاء فوقه. بعد ذلك أطفأت المصباح الرئيسي، وأنارت المصباح الموضوع بجانب السرير مبعدة الضوء عن وجهه.

ـ والآن، بإمكانك أن ترتاح قليلاً.

أغمض عينيه وهو يقول بصوت أجشّ: «شكراً، يا عزيزتي. أنت بالغة الرقّة والشهامة».

كانت على وشك الابتعاد عنه حين مدّ يده وهو مغمض العينين، يبحث عن يدها. وفجأة، قال بلهفة: «إبقي معي. لا أريد أن أكون وحدي».

ـ عليّ أن أطلب بعض العون... أو الطبيب...

ـ لا فائدة...

وتقلّصت أصابعه بألم: «عديني بألاّ تتركيني».

أجابت وقد تأثّرت لطلبه: «أعدك».

جلست على كرسي بجانب السرير وهي مازالت ممسكة بيده، ثم استندت إلى الخلف، وانتظرت حتى نام.

***

٦ ـ براءة.. إلى حين

فتحت نيكولا عينيها ونظرت إلى ساعتها، فإذا هي السادسة والربع.

ما زال الرجل نائماً في فراشها. كان يتنفس بسهولة. وتملّكها الارتياح وهي ترى أنّه قد استعاد لونه الطبيعي.

شعرت بتشنّج وتصلب في عضلاتها لأنها نامت على الكرسي، وبألم في عضلات الرقبة، وفي ذراعها اليمنى وكأن إبراً ودبابيس تخزها بقوّة.

الأمر الوحيد الجيّد هو أنّ مشكلة الكهرباء انتهت، فأصبح جوّ الغرفة دافئاً مريحاً.

تحرّكت بحذر، وأخذت ملابسها ودخلت إلى الحمّام ثم أغلقت الباب خلفها بخفّة.

عندما اغتسلت وارتدت ملابسها ومشّطت شعرها كالمعتاد، عادت إلى الغرفة لتجد أنّ ضيفها قد استيقظ، وجلس على حافة السرير وبدأ يلبس حذاءه.

نظر إليها باسماً: «صباح الخير».

فردّت ابتسامته: «صباح الخير. كيف حالك هذا الصباح؟»

ـ بأحسن حال. شكراً.

فقالت من كلّ قلبها: «ما أشدّ سروري».

ـ يجب أن أعتذر عن الإزعاج الذي سبّبته لك.

فهزّت رأسها: «لم يكن ثمة إزعاج».

ـ أعطيتني سريرك. فأين نمت أنت؟

www.elromancia.com

ـ على الكرسي.

رأت القلق بادياً عليه، فقالت تطمئنه: «ونمت بشكل جيد أيضاً. وقد اغتسلت لتوّي وغيّرت ملابسي».

ـ وهذا ما سأقوم به أنا أيضاً.

تذكّرت أنّ غرفته في الطابق السابع، فقالت: «سأرى إذا كانت المصاعد قد عادت إلى العمل».

ارتاحت عندما تأكّدت أنها تعمل، فعادت لتخبره: «يبدو أنهم أصلحوها».

ـ هذا حسن، لأنني لا أستطيع أن أصعد السلّم.

تناول سترته ولبسها، ثم مدّ يده يصافحها: «كنت طيبة للغاية معي، بينما أنا لم أعرف إسمك».

ـ نيكولا ويتني.

ـ وأنا جون تيرنر.

تصافحا برزانة. وسألته: «هل أنت هنا لحضور المؤتمر؟»

ـ نعم، وأنت؟

ـ أنا التي نظمّته. أخذت مكان الآنسة أنكن في آخر لحظة بعد أن أدخلت إلى المستشفى بعد ظهر أمس.

ـ هل لك أن تتناولي الفطور معي؟ ما زال هناك الكثير ليقال.

قال الكلمات الأخيرة بصوت أجشّ. وكانت هي، منذ موت جيف، قد اعتادت تجنب العلاقات الإجتماعية، فدهشت وهي تسمع نفسها تقول: «شكراً. سأقبل بكل سرور».

ـ إذن، هل نقول إننا سنتقابل في غرفة الفطور بعد ربع ساعة؟

وبعد أن تفحّصت مفكّرة عملها، ذهبت نيكولا إلى غرفة الفطور التي تقع في الجهة الخلفية من الفندق.

كان الوقت لا يزال مبكراً، ولم يكن في الغرفة سوى رجل واحد يقرأ صحيفة الصباح.

اختارت نيكولا مائدة لشخصين بجانب النافذة. وعندما دخل جون بعد ذلك، حليقاً، مرتدياً بذلة أنيقة، شعرت وكأنها ترى صديقاً قديماً.

جلس أمامها وابتسم لها. وخطر لها مرّة أخرى، أنه كان في ما مضى رجلاً وسيماً.

راحا يتحدثان عن المؤتمر واليوم الذي ينتظرهما، وهما يأكلان.

كانت نيكولا قد سكبت فنجانهما الثاني من القهوة عندما قال جون فجأة: «بالنسبة لليلة الماضية... أنا أعتذر».

ـ تعتذر؟ لماذا؟

ـ أعتقد أنني تعلّقت بك كالطفل.

ـ ما من داعٍ للاعتذار أبداً.

ـ شكراً. أنت بالغة اللطف.

ـ أليس هناك ما...؟

وسكتت مترددة. فهزّ رأسه وقد عرف ما تفكر فيه: «ساهمت أسباب عديدة في تدهور حالتي الصحية، وكل نوبة تمرّ بي تدنيني من النهاية. كل ما أرجوه هو أن تكون زوجتي بانتظاري، كما وعدتني، وهي على فراش الموت».

ـ صوفيا؟

فأجفل: «كيف عرفت اسمها؟»

ـ عندما كنت جالساً على السلّم الليلة الماضية، نطقت باسمها.

ـ كنت أريدها معي، لكنك جئت بدلاً منها، ولن أستطيع أبداً أن أفيك حقّك من الشكر.

ثم غيّر الموضوع وقال: «لا بدّ أنّك تسافرين كثيراً في عملك؟»

ـ نعم، فأنا لا أتوقف أبداً تقريباً.

ـ ألا تتعبين قطّ من ذلك؟

ـ أحياناً.

ـ أرى أنك متزوجة. ألا يعترض زوجك على كثرة غيابك عن البيت؟

فقالت بهدوء: «زوجي ميت. قتل في حادث سيارة».

ـ منذ متى؟

ـ منذ سنتين ونصف.

مدّ جون يده وأمسك بيدها: «الحزن لا يخفّ مع الوقت، أليس كذلك؟ مرّت ثلاث سنوات ونصف على وفاة زوجتي، وما زلت أفتقدها في كلّ ساعة من كلّ يوم. كما لا بد أنك تفتقدين زوجك، أنت أيضاً..».

* * *

ـ إذن نشأ بينكما رباط فوري من التعاطف؟

أعادها صوت دومينيك الهادىء إلى الحاضر، فطرفت بعينيها قليلاً وقالت: «عفواً».

فكرّر سؤاله.

ـ نعم، يمكنك أن تقول هذا.

ـ وأظنكما تابعتما الحديث وعرفتما الكثير عن بعضكما البعض؟

ـ ليس تماماً. ما حدّثني به جون عن حياته الخاصة كان قليلاً نسبياً. وكما قلت لك من قبل، لم يذكر مرّة أنّ لديه أبناء زوجة، أو أنه يعيش في فينيسيا.

ـ هذا غريب.

ـ أظنّه كان لا يزال يشعر بألم بالغ عند ذكر صوفيا. كنا نعاني من المشكلة نفسها، ولهذا فهمت شعوره...

ـ إذن، فقد فقدت زوجك حقاً؟

وعندما نظرت إليه نيكولا بحيرة، ظنّاً منها أنّها لم تسمع جيداً، أضاف: «أم أنّها مجرد حيلة بارعة لاستدرار العطف واكتساب الصداقة بسرعة؟»

لم تصدّق أذنيها، فقالت: «لا أدري ماذا تعني».

ـ أعني، هل أنت أرملة حقاً؟ أم أنه ادّعاء كجزء من التمثيلية؟

شحب وجهها وقالت: «ليت الأمر مجرّد جزء من تمثيلية... لكنّني، لسوء الحظ، أرملة فعلاً».

وأضافت بصوت أجشّ: «سبق وأخبرتك كل شيء عن زوجي..».

ـ ولكن ما هي نسبة الحقيقة في ما أخبرتني به؟

رفعت رأسها ونظرت إليه بجرأة: «كل ما قلته لك. كل كلمة منه».

ثم أضافت بمرارة: «أنا أدرك بأي منظار تراني، لذا لا أتوقّع منك أن تصدّق ما أقوله».

ـ عليّ أن أعترف بأنني، عندما غادرنا «سكلوس لينز»، رحت أتساءل عما إذا كنت مخطئاً في ظنّي بك. لأن كلّ ما أخبرتني به بدا مقنعاً.

ثم أضاف ساخراً: «بالرغم من أنّ ما أعرفه هو العكس تماماً، كنت على وشك أن أثق بتلك الفتاة البريئة..».

فصرخت بغضب مفاجىء: «ماذا تعني بقولك (بالرغم من أن ما أعرفه هو العكس تماماً)؟ أنت لم تكن تعلم شيئاً. لأن جون ترك لي أمواله، افترضت أنني من اللواتي يسعين وراء المال، وقد جعلته يعلق بشباكي. وهكذا وصلت إلى نتيجة خاطئة تماماً».

ظهرت ومضة برق من خلال مصاريع النوافذ، تلاها هدير رعد قوي فتحوّل إنتباهها للحظة إلى العاصفة التي تقترب.

ـ أنا واثق من أنك تريدينني أن أعتقد أنك بريئة كما يبدو عليك. لكنّني لا أستطيع أن أصدّق ذلك، مع الأسف.

فقالت بازدراء: «إنّ رغبتك في الاستيلاء على ثروة أمّك جعلتك تحكم على الأمور بشكل خاطىء فأنت لا تميّز البراءة ولو رأيتها».

ـ لكن بإمكاني أن أميّز عدم وجودها.

ـ ماذا؟

ـ بإمكاني أن أميّز عدم وجودها.

وتابع بلهجة لاذعة: «أنت لا تتوقعين مني أن أصدّق أنّ امرأة ساذجة وبريئة كما تدّعين، تلقي بنفسها عليّ بهذا الشكل، مع أننا تعارفنا للتو».

تذكّرت بكلّ وضوح كيف ترنّحت حينذاك فوضعت كفّيها على صدره، وتوهّج وجهها.

ـ أم أنّك تنكرين ذلك أيضاً؟

ـ أعرف أن الأمر بدا وكأنني ألقي بنفسي عليك، لكنّها كانت مصادفة تماماً. فقد فقدت توازني.

ـ حقاً؟

ـ نعم، حقاً.

وتلعثمت قليلاً: «أنا... شعرت بدوار ما جعلني غير ثابتة على قدميّ...».

ملاحه الساخرة أنبأتها بأنّه لم يصدّق كلمة مما قالته.

ـ إذن، أنت تدّعين أنّها لم تكن دعوة منك؟

ـ هذا بالضبط ما أقوله.

فابتسم بمكر: «أظنّك ستقسمين الآن على أنّك لم ترغبي في أن أعانقك، ثم تحاولين لومي لأنني قمت بذلك».

خفضت بصرها وقالت بصوت خافت: «لا».

نظر إلى أهدابها الطويلة المذهّبة الأطراف وهي تنسدل على وجنتيها، ثم ردّد قولها: «لا؟»

ـ ليس في نيّتي أن أحاول لومك لإغوائي.

ـ أنا مسرور لسماعي هذا.

استجمعت شجاعتها، عالمة أن خيارها الوحيد هو أن تقول الحقيقة، وتابعت: «لم يكن في نيّتي أن يحدث ذلك، إلا أنني رغبت فعلاً في أن تعانقني».

رفع حاجبه الأسود ساخراً: «أخبريني يا نيكولا، هل تشعرين برغبة في معانقة كلّ رجل جديد تتعرفين إليه؟»

عاد وجهها يتوهّج من جديد: «لا. الرجل الوحيد الذي عرفته في حياتي هو زوجي».

فقال وعيناه تلمعان: «تعنين باستثنائي أنا؟»

فرفعت رأسها: «نعم، باستثنائك».

وبغية إقناعه بأنها ليست المرأة التي يظنّها، تابعت تقول بهدوء: «بعد موت جيف، لم أهتم حتى بالنظر إلى رجل آخر».

ـ أتعلمين أنني أكاد أصدّق ذلك؟

قال هذا متهكماً، فردّت: «بل يمكنك أن تصدّقه».

ـ ألم تخبريني أن زوجك مات منذ سنوات؟

ـ ثلاث سنوات.

ـ وبقيت عزباء كل تلك المدة؟

ـ نعم.

ـ أرملة صغيرة وجميلة بحاجة إلى مؤاساة... من المؤكد أن الكثير من الرجال حاموا حولك.

ـ لم أخبر أحداً أنني أرملة ما عدا جون.

التوت ابتسامة دومينيك، وتذكّرت أوّل لقاء بينهما فقالت بسرعة: «أعني قبل أن أتعرّف إليك».

وتابعت، متلهّفة إلى إقناعه: «عدا اهتمامي بعملي، عزلت نفسي عن كلّ إنسان. لم أهتم أبداً بالرجال. كلّ ما كنت أريده هو أن أترك وشأني لكي ألملم حطام حياتي».

ـ أتريدين أن تقنعيني بأنّك لم تفتقدي الاتصال بالناس؟

ـ إذا كنت تعني العلاقة مع الجنس الآخر... عندما تكون حزيناً لخسارتك شخصاً عزيزاً، ستفقد كلّ اهتمام بالجنس الآخر. ما كنت أفتقده حقاً، هو الدفء الإنساني... الحنان.

كان في لهجتها رنّة من الصدق لا يمكن تجاهلها وبدا عليه أنّه اهتزّ للحظة. ثم عاد وجهه إلى جموده، وسألها: «ما دمت أمضيت ثلاث سنوات من دون إقامة أي علاقات اجتماعية، كما تقولين، لماذا إذن فتحت قلبك لرجل غريب تماماً؟».

www.elromancia.com

شعرت وكأن يداً قوية تعتصر قلبها، وبقيت صامتة.

وبدا أنه مصر على تلقي جواب، فألحّ يقول: «أو ربما تتوقعين مني أن أقتنع بأنك شعرت أنني (شخص غير عادي) مثل جون تيرنر؟»

- لا.

وكيف يمكنها أن تقول له هذا بعد ما قاله؟

- لماذا إذن؟

- ربما أثّرت فيّ غرابة المكان الذي كنّا فيه، أو لعلي شعرت بأن فترة حدادي قد انتهت، وأن بإمكاني أن أبدأ العيش من جديد.

- إذن، كان يمكن لأي رجل أن يسدّ الفراغ؟

- لا!

ندمت على حماستها: «لا بد أن جاذبيتك الشخصية قد أثّرت فيّ بشدّة».

- آه! ولكن ألم تقولي إنني أشبه زوجك؟

- ظننت هذا في البداية، لكنّني كنت مخطئة. أنت لا تشبه جيف على الإطلاق، ولا حتى بالمظهر.

فكّر في ذلك برهة، قبل أن يسألها: «ومع ذلك انجذبت إليّ؟»

- نعم.

وعندما لم تقل أكثر من هذا. قال بنعومة: «لعلك اعتبرتني (بطاقة إعاشة) أخرى».

- لست بحاجة إلى (بطاقة إعاشة).

- طبعاً، بعد أن وجدت من اهتم بمستقبلك.

فقالت بحماسة: «لم أكن بحاجة إلى (بطاقة إعاشة)، فأنا قادرة على إعالة نفسي والاهتمام بمستقبلي».

- قد تعتبر بعض النساء العثور على رجل غنيّ، وحيد، ومريض، طريقة سهلة لتأمين مستقبلهنّ.

- بعض النساء، وربما! لكنّني لست واحدة منهنّ.

فتابع وكأنها لم تتكلم: «غريب، كم يمكن لوجه جميل أن يخدع رجلاً

يبدو ناضجاً متزناً! ولكن ألا يقول المثل «لا أحد أكثر حماقة من عجوز وحيد؟»».

- لم يكن جون أحمق. صحيح أنه كان وحيداً. لكن، لو كنت طامعة بماله، لأدرك ذلك بكلّ تأكيد.

- متى أخبرك أنه سيوصي لك بثروته؟

- لم يفعل ذلك. نحن لم نتحدث قطّ عن المال. ولم أكن أعلم أنه رجل غنيّ. لم أعرف ذلك إلاّ عندما كتب إليّ المحامي ليخبرني عن وفاة جون، ويطلب مني أن أزوره.

أدركت نيكولا أنها لن تستطيع إقناعه أبداً، وشعرت بالتعب والإرهاق من محاولاتها تلك. أنزلت قدميها على الأرض وقالت: «والآن، إذا سمحت، كان يومي صعباً، وأريد أن أنام».

هزّ كتفيه ووقف وهو يقول ببساطة: «حسناً... من الأفضل أن أحملك إذاً، لئلا تجهدي كاحلك».

فقالت بذعر مفاجىء: «لا! يمكنني أن أسير. لست بحاجة إلى من يحملني».

خشيت نيكولا إذا ما حملها وشدّها إلى جسمه القويّ أن يضعف تصميمها على عدم التساهل معه، فتنجرّ إلى عناق آخر قد تندم عليه. عليها ألاّ تسمح لنفسها بأن تضعف، لأن ذلك سيحطّم كرامتها واحترامها لنفسها. وسيجعلها من ذلك النوع من النساء الذي يظنّه.

بالرغم من الكمادة الباردة، ما زال كاحلها متورماً. وإذ كانت تدرك صعوبة السير بحذاء عالي الكعبين، قرّرت السير حافية، فحملت حذاءها بيدها وجاهدت للوقوف. لكنها ما كادت تسير خطوتين حتى خذلها كاحلها. وبشهقة ألم ألقت بحذائها من يدها وتمسّكت بظهر أقرب كرسي.

صرخ دومينيك بها منزعجاً: «والآن، عليك أن تتوقفي عن التصرف كحمقاء عنيدة!».

وقبل أن تتمكن من مناقشته، انحنى وحملها بين ذراعيه.

كل عصب في جسدها تنبّه مستيقظاً، وتسارعت أنفاسها وكذلك دقّات قلبها.

كانت تحاول جاهدة أن تبدو جامدة المشاعر عندما نظر إليها ساخراً وقال: «ستساعدينني كثيراً إذا وضعت ذراعيك حول عنقي».

قامت بذلك كارهة، وهي تعضّ شفتها. فقد رفعها من دون جهد، لذا لن تصدّق أنّه حقّاً بحاجة إلى عون. وهي واثقة من أنّه يحاول مضايقتها فقط.

إجتاز بها الرّدهة ثم السلّم الرخامي الأنيق، فتذكرت نيكولا السلم الذي رأته في «كا- مالفازيا» والذي يبدو عادياً بالنسبة لهذا الأخير. لم يبدُ التعب على دومينيك بسبب ثقل جسمها، بل بدا قوياً بشكل رائع.

عندما وصلا إلى قمّة السلم، اتجه يساراً وسار في ممرّ فسيح، قامت على جانبيه لوحات ومرايا رائعة إلى جانب أبواب مزخرفة داكنة اللون.

توقّف أمام باب في منتصف الممّر، ثم قال بهدوء وهو ما زال يحملها: «هذه هي غرفتك».

لم تلحظ نيكولا أيّ فرق بين الأبواب، وتساءلت كيف يمكنه أن يميّزها من بعضها البعض.

سألها وكأنه قرأ أفكارها: «هل هناك شيء ما؟»

- لا... إنما خطر في بالي أنني إذا اضطررت إلى الخروج من الغرفة فلن أتمكن من العودة إليها مرّة أخرى، لأنني لا أستطيع تمييزها عن سواها من الغرف.

- لن تضطري إلى الخروج منها، حتى الصباح على الأقل.

شعرت بشيء من الحماقة وقالت: «آه، كلّ ما في الأمر أنّ الأبواب متشابهة».

- ربما تبدو متشابهة للوهلة الأولى، لكن إذا نظرت إليها ملياً فستجدين أن الزخارف التي تزيّنها مختلفة عن بعضها البعض. فمعظم الزخارف تظهر آلهة الرومان وعظماءهم.

ومن دون تغيير في نبرة صوته، قال: «هل لك أن تديري أكرة الباب؟»

أبعدت إحدى يديها عن عنقه، ومدّتها لتقوم بما طلبه منها.

فتح الباب بكتفه وأدخلها إلى غرفة فسيحة، حسنة التأثيث، أضيئت فيها المصابيح، ثم أوقفها على قدميها بحذر.

- كلّ ما عليك أن تفعليه لتتعرفي إلى غرفتك، هو أن تبحثي عن صورة «بانيس».

وأشار إلى لوحة تتوسط الباب، تظهر وجهين متماثلين ينظر كل منهما في الاتجاه المعاكس للآخر: «إنّ له وجهين، كما ترين..».

وتابع يقول بنبرة غريبة: «لقد اخترت هذه الغرفة لك خصيصاً».

وعندما احمرّ وجهها، قال بنعومة: «ولكن ليس للسبب الذي تظنّينه».

وابتسم قليلاً ثم لمس خدّها الساخن بأصابعه الباردة محطّماً ما بقي من تماسكها: «بانيس» يصوّر، عادة، بوجهين لأنه حارس الأبواب، حيث يمكنه حراستها في الإتجاهين، وهو أيضاً، إله (البدء من جديد)».

وعندما حدّقت إليه متسائلة عمّا يعنيه بكلماته هذه، قال بمرح: «عندما سألتك عن خططك لهذه الإجازة، ألم تجيبي بأنّ هذه الإجازة هي بداية جديدة؟»

- نعم، هذا صحيح.

لكن أملها بأن تكون رحلتها هذه بداية مرحلة اكتشاف رائعة، تحطّم على صخرة تحامل دومينيك عليها، حتّى قبل أن تبدأ.

وألحّ على ذهنها سؤال كان يحيّرها منذ راح دومينيك يطلعها على شكوكه بشأنها فقالت: «أريدك أن تجيب عن سؤال، الآن وهنا».

- حسناً جداً، ماذا تريدين أن تعلمي؟

تزاحمت الكلمات في رأسها وكادت تتلعثم، إلاّ أنها سألته بحذر: «طالما أنّ ظنّك بي سيء إلى هذا الحدّ، لماذا عانقتني بحرارة تلك الليلة؟»

بدا عليه الارتباك لحظة، قبل أن يعترف بأسف: «لم أستطع أن أمنع نفسي. كنت أرغب فيك إلى حدٍّ منعني من الابتعاد عنك».

ـ أليس من السهل الابتعاد عن امرأة لا تكنّ لها سوى الاحتقار؟

ـ لن أقول... لا شيء سوى الاحتقار... فأنا أراك ساحرة وخلاّبة، وكنت غيوراً من جون... لكن، في حين احتقرت نفسي لشعوري هذا، رأيت أنني أرغب فيك أكثر مما رغبت بامرأة قطّ من قبل...

شعرت نيكولا برضى غريب. وتابع دومينيك قائلاً وقد تسمّر في مكانه وهو ينظر إلى وجهها الجميل بعنف: «ومازلت كذلك. ماذا تريدين أن تعرفي أيضاً؟».

وكانت نيكولا تعلم جيداً ماذا تريد، ما جعل السخونة تتملّكها.

وبابتسامة واثقة وذات معنى، وضع يديه على كتفيها ثم جذبها إليه، مثيراً بهذه الحركة البسيطة مشاعر متلهّفة ومستعجلة، لم يتمكن جيف من إثارتها فيها، طوال الأشهر التي عاشا فيها كزوجين.

راح يتأمّلها بنظرات متمهّلة. بدت عيناها متلهّفتين، كما بدا عليها الاسترخاء والاستسلام إلا أنها انتفضت فجأة وكأن يداً هزّتها لتستيقظ من حلم جميل، فابتعدت عنه وقالت: «ما أريده هو أن تصدّق أنني لست تلك المرأة التي تظنّها».

أجفل دومينيك بشكل واضح، إلا أنه تمالك نفسه بسرعة: «ليتني أصدّق أنك غاية في البراءة، لكن في هذه الظروف يبدو ذلك صعباً للغاية... على كلّ حال، أفضّل أن أمنحك البراءة لعدم كفاية الأدلّة، وذلك إلى أن نتعارف بشكل أفضل».

فقالت بهدوء: «أنت حقّاً متغطرس».

ضحك دومينيك وهو يمرّر إصبعه على خدّها: «ولكن ألا تحبين رفقتي، مع ذلك؟»

كانت تعلم أنّها إذا بدت سهلة فسيثبّت رأيه بها. لذا أنكرت بحزم: «لا».

ـ هل أنت واثقة؟

ـ واثقة تماماً.

ـ هذا مؤسف.

ـ والآن، أرجوك أن تذهب من فضلك.

ـ لا بأس إذا كان هذا ما تريدينه حقاً. تصبحين على خير يا نيكولا. أتمنّى لك أحلاماً سعيدة.

فأجابت بجفاء: «تصبح على خير».

وعند العتبة، التفت قائلاً: «بالمناسبة، أنا في الغرفة الملاصقة لغرفتك، فإذا حدث أن غيّرت رأيك، ثمة باب يصل بين الغرفتين».

توتّرت أعصابها لهذه الدعوة الساخرة، وما لبث الباب الثقيل أن انغلق خلفه بخفّة.

تساءلت وهي تشعر برجفة غريبة، عمّا إذا كان هذا ما هدف إليه دومينيك؟ وعمّا إذا كان هو السبب الحقيقي لإعطائها هذه الغرفة بالذات؟

حاولت ألاّ تفكر فيه، وأن تنسى وجوده في الغرفة المجاورة، وأن تتجاهل رغبتها في أن تكون معه بالرغم من كلّ شيء.

راحت تنظر حولها. بدت الغرفة مرتبة بعناية بالرغم من بساطة زخرفتها، وحده السقف كان مزخرفاً بالجص ما يضفي عليها طابع الأناقة.

بنظرة سريعة، رأت نيكولا أن ثيابها أخرجت من الحقيبة وعُلّقت في الخزانة بعناية.

على منضدة بجانب السرير رأت هاتفاً مزخرفاً، وضعت إلى جانبه ساعة السفر الصغيرة التي تحملها عادة معها، والكتاب الذي كانت تقرؤه، وصندوق مجوهرات أمها.

كان في الغرفة نافذتان ضيّقتان تعلوهما قنطرتان مقوّستان. وما هي إلاّ لحظات، حتى سمعت صوت المطر ينهمر عليهما بقوة، فسارت إلى أقربهما، وهي تعرج قليلاً بسبب كاحلها المصاب، وأزاحت الستائر.

نظرت إلى القناة المظلمة فإذا بوميض البرق ينيرها فجأة بنور يخطف الأبصار، وإذا بها ترى الشرفات الحديدية للقصر المقابل مضاءة بوضوح أيضاً، وسرعان ما تبع هذا الوهج القوي صوت الرعد، متردّداً مرّة بعد

مرّة.

لقد وصلت العاصفة أخيراً!

لم تكن نيكولا خائفة منها، إلا أن لمعان البرق القويّ في الخارج أشعرها بالقلق والتوتر.. كما شعرت بالإحباط بسبب الأحداث التي مرت بها اليوم، واضطرارها إلى الرضوخ لأوامر دومينيك بعد أن لوت كاحلها. كان في الغرفة بابان فتساءلت أيهما يؤدي إلى الحمّام وأيهما إلى غرفة دومينيك.

شعرت بشوق لأن تلقي نظرة على دومينيك وهو يغفو في غرفته، إلاّ أنها خشيت إن هي فتحت باب الغرفة وكان هو بانتظارها، ألاّ تجد القوّة للابتعاد عنه مرّة ثانية. وهذا سيعزز الصورة السيئة التي كونها عنها في خياله. أيهما باب الحمّام يا ترى؟

وبعد لحظة من التفكير وجدت الجواب، فقد تذكرت قوله إن غرفته هي التالية لغرفتها، وهذا يعني أن الباب الذي يقع إلى الجهة اليمنى هو المؤدي إلى غرفة دومينيك. لفت انتباهها في ذلك الباب قفله الكبير القديم الطراز، ولكنها لم ترَ فيه مفتاحاً ولا مزلاجاً.

ومع ذلك، أدركت نيكولا أن ليس عليها أن تخشى سوى شوقها إليه. فدومينيك لن يقوم بخطوة أخرى باتجاهها. وبعد أن أطلعها على شعوره نحوها، ترك لها هي أن تقرر قبول دعوته أو رفضها.

ليته لم يأخذ عنها هذه الفكرة السيئة! لكنّها لا تستطيع أن تلومه، وهي التي تعرف كيف تبدو الأمور بالنسبة إليه. تنهدت وهي تتساءل عمّا إذا كانت ستتمكن يوماً من إقناعه ببراءتها، أم أنّ القدر جمعهما لكي يتواجها على حافّة هوّة بحيث لا يستطيع أحدهما العبور إلى الجهة الأخرى أو القفز باتجاه الآخر. إنها فكرة لا تطاق.

أبعدت الفكرة من رأسها، ودخلت إلى الحمام فإذا به فسيح مترف.

بذلت جهداً بالغاً لإزاحة القلق الذي يعتريها جانباً. غسلت أسنانها ونزعت الرباط عن كاحلها ثم استحمّت بحذر.

بعدئذٍ، مشطت شعرها وتركته ينساب على كتفيها، ثم ارتدت قميص

نومها وأطفأت الأنوار، وصعدت إلى سريرها.

أطفأت المصباح الجانبي وأغمضت عينيها، شاعرة بتعب بلغ حدّ الإرهاق. لقد أمضت نهاراً طويلاً متعباً ليس من الناحية الجسدية وحسب بل من الناحية النفسية والذهنية أيضاً.

كما عانت من تقلبات في مشاعرها، فانتقلت أكثر من مرة، بين الحزن والسعادة. جعلها تسارع الأحداث وكثرتها، عاجزة عن التفكير، لكن لا بأس، فلتخلد الآن إلى الراحة علّها تخرج غداً بقرار حاسم.

أوّل قرار، وهو الأهم: هل تتابع إجازتها في فينيسيا أم تعود إلى الوطن؟ لكن هذا السؤال يحمل جوابه معه إذا رحلت الآن فستخسر دومينيك إلى الأبد، أما إذا بقيت هنا، فقد تجعله يغيّر رأيه فيها وينظر إليها بصورة مختلفة. وما دام هناك أمل، مهما كان ضئيلاً، بأن يغيّر رأيه فيها، فلا يمكنها الرحيل.

أما الأمر الثاني الذي لا يقلّ أهمية عن الأوّل، فهو ماذا ستفعل بالمنزل «كا- مالفازيا»؟ وذكّرها هذا بموعدها مع المحامي صباح الغد، لكي يريها المنزل. هذا الموعد الذي لن تأسف الآن على إلغائه... تشوّشت أفكارها، ثم تثاءبت...

وحالما استغرقت في النوم، أخذت تحلم...

رأت نفسها في «كا- مالفازيا»، تصعد السلّم، وكل ما حولها مظلم ساكن ويبعث على التوجّس. فكّرت في العودة لكنها أدركت أنّ ما من خيار لديها سوى متابعة طريقها.

سمعت صوتاً خفيفاً خفياً يعلو على صوت الحفيف الخافت الذي يصدر عنها، فتملكتها قشعريرة باردة. وقفت، واستدارت تحدّق إلى الظلام مصغية وهي تحبس أنفاسها.

عادت تسمع الصوت مرّة أخرى. إنه وقع أقدام خفيف للغاية، جعل شعر رأسها يقف لشدّة الخوف.

ثمّة شخص قريب جداً، يقترب منها في الظلام ويكاد يلمسها.

وفجأة غمرها عرق بارد، فأطلقت صرخة مختنقة وهي تحاول الهرب. لكنها لم تكد تسير متعثرة بضع خطوات حتى اصطدمت بجدار صلب. أخذ قلبها يخفق بشدّة وهي تلهث كأنها غير قادرة على التنفس، وراحت يداها تبحثان عن مخرج، لكنها ولشدة ذعرها لم تتمكن من إيجاد الباب، فهي لا تستطيع أن ترى لشدة الظلمة. لكن، لا بد من وجود طريق تنطلق منه إلى حيث الأمان...

***

٧ ـ وردة وأشواك..

وعلى الفور انفتح أحد الأبواب، ساحاً للضوء بأن يتسرّب من الغرفة المجاورة، وفي لحظة وجدت نيكولا نفسها خارج السرير مرتمية بين ذراعي دومينيك.

أخذت تقاومه بعنف في البداية، وما زال الذعر يتملكها.

ضمّها إليه بحنان بالغ وهو يتمتم: «إهدئي... إهدئي... كل شيء على ما يرام... إنه مجرد كابوس».

عندما توقفت عن المقاومة ارتخى جسدها إلا أنها كانت لا تزال ترتجف.

ضمّها إليه، وهو يشعر بصدرها يعلو ويهبط وبقلبها يخفق بعنف.

وضعت رأسها على صدره بينما دفن دومينيك وجهه في شعرها المعطّر، وهو ما زال يتمتم مهدئاً حتى توقفت شهقاتها، وهدأت خفقات قلبها، وعادت حالتها الطبيعية.

سألها بعد فترة: «هل أنت بخير الآن؟».

ـ نعم أنا بخير.

لكن صوتها كان أجشّ ضعيفاً فيما بقيت ترتجف.

انحنى وحملها: «دعيني إذن أعيدك إلى السرير».

وعندما وضعها في السرير وجذب الغطاء فوقها، عاد إليها الشعور بالذعر من الظلام. بدا جسمها بارداً رغم حرارة الجو وقبل أن تستسلم للنوم، تشبثت به ضارعة: «أرجوك لا تتركني».

ـ أنا لن أتركك، سأبقى بقربك إلى أن تهدئي.

www.liilas-romancia.com

- لا تقفل الباب بين غرفتينا، فهذا يجعلني أشعر بالاطمئنان.
- حسناً، على أي حال سأكون قريباً جداً في الغرفة الأخرى.

***

عندما استيقظت نيكولا، كان السكون يعم المكان ما ينبيء بأن الوقت لا يزال مبكراً.

وفيما هي مستلقية، أخذت ذكريات بعض الوقائع تمر في ذهنها، فتذكرت لهفة دومينيك عليها، والحنان الذي أحاطها به ما أرسل في كيانها شعوراً بالطمأنينة جعلها تسترخي من جديد في سريرها راضية. غمرت بذراعيها الوسادة البالغة النعومة وأطلقت تنهيدة ارتياح. لقد عملت بنصيحة جون ووضعت الماضي وراءها، فإذا بالحياة تهديها أجمل ما تتمناه امرأة في الوجود. شعرت بعد وحدتها الطويلة بروعة ذلك، فتنهّدت، ثم اندسّت تحت الغطاء من جديد.

فتحت جفنيها الثقيلين فوجدت أن الباب الذي يصل بين غرفتها وغرفة دومينيك لا يزال مفتوحاً. راودتها رغبة في أن تتسلل إلى الغرفة الأخرى لتلقي نظرة على ذلك الرجل الجذّاب وهو لا يزال مستغرقاً في النوم. راح قلبها يخفق بسرعة شديدة بسبب هذه الفكرة. حاولت تجاهلها، خوفاً من الإغراء الذي قد يتملكها عندما تجد نفسها بالقرب منه، لكنّها لم تستطع. قامت من سريرها بحذر وتأنٍ. وما هي إلا بضع خطوات حتى وجدت نفسها على مسافة قريبة من سريره. راحت نظراتها تتأمله بشغف، كان وجهه الوسيم قريباً جداً ما جعلها ترى أهدابه الطويلة الرائعة، والخطوط الخفيفة التي تحيط بفمه ولحيته النابتة السوداء التي تزيده رجولة وإغراء.

شعرت برغبة قوية تدفعها لأن تمرّر أصابعها على خدّه الخشن، وتترك هذه الأصابع تعبث بشعره الكثّ. شبكت يديها ببعضهما البعض وشدّتهما إلى جسمها في محاولة للسيطرة على نفسها.

صدر عنه صوت خافت وهو ينقلب في السرير من جانب إلى آخر. وإذا

بموجة جديدة من المشاعر تكتسحها إلا أنّها هذه المرّة شعرت بشيء أقوى من الانجذاب الجسدي، شعرت بنوع من العطف والحنان نحوه. منذ أول لقاء بينهما لم يكن شعورها نحو دومينيك مجرّداً من العواطف. قد يكون الرجل متكبراً متغطرساً، لكنّها تشعر في أعماقها أنها تريده وتحتاج إليه.

وما أن وصلت إلى هذه النقطة من التفكير، حتى نبّهها صوت داخلي إلى ضرورة الحذر في علاقتها مع دومينيك. ففي نظره لا زالت نيكولا امرأة طامعة بالثروة التي تركها جون، ولم تثبت براءتها من هذه التهمة تماماً.

تراجعت إلى الوراء بهدوء وقرّرت أن تعود إلى سريرها من دون أن يشعر بوجودها، لأن ذلك سيجعل صورتها لديه أسوأ بكثير رغم أنها تمنت لو أنّ بإمكانها أن تريح رأسه على صدرها.

***

عندما استيقظت نيكولا للمرة الثانية، هاجمها على الفور خليط من الذكريات والمشاعر المتصارعة.

وبينما هي مستلقية تحدّق في أغطية السرير المطرّزة، راح ينهشها حسّ بالفشل وبإدانة الذات. كيف تتوقّع أن يصدّق دومينيك أنّ علاقتها بجون كانت بريئة تماماً، بينما سمحت له بمعانقتها منذ موعدهما الأوّل؟

وتنهدت. لو أخبرته الحقيقة، وأنّها تحبّه، لما صدّقها أبداً.

إنها تحبّه... حوّل عقلها الباطن شعورها هذا إلى كلمات.

في ما مضى، أحبت زوجها، لكنّها تدرك الآن أن حبّها لجيف كان مزيجاً من الحنان والمودة والإلفة.

بينما الحب الذي تشعر به نحو دومينيك حصل بسرعة... حيث قفز إلى قلبها وروحها شعور غريب، مكتمل النمو تماماً. ولم تتمكّن بعد من إدراك ما حدث لها.

حبّها لجيف كان متبادلاً تماماً، بينما يبدو أنّ حبّها المحموم هذا لدومينيك هو حب من جهتها فقط!

انتصبت جالسة وقد وخزتها هذه الفكرة المؤلمة. كانت الغرفة باردة ومعتمة نوعاً ما، مع أنها أصبحت مألوفة لها أكثر مما كانت عليه بالأمس.

ورغم شعورها بأنّ الوقت ما زال مبكراً، أنبأتها ساعتها بأنّها الثانية عشرة إلاّ ربعاً وأنّ الموعد مع السنيور مانسيني قد فاتها.

وفي تلك اللحظة، سمعت قرعاً على بابها.

أجابت: «أدخل».

تملكتها دهشة بالغة حين دخل دومينيك. كان يرتدي بنطلوناً عادياً وقميصاً مفتوحاً عند العنق، ويحمل في يده صينية فضية. قال: «أرجو ألاّ أكون قد أيقظتك. استيقظت قبلك لأحضر لك الفطور».

فقالت بشيء من الاضطراب: «لا. كان عليّ حقاً أن أستيقظ منذ وقت طويل. كان لديّ موعد في الصباح الباكر مع السنيور مانسيني».

ـ أدركت أنك لن تتمكّني من الذهاب إلى الموعد، فاتصلت به.

ـ شكراً.

فقال بوقار: «أذنت لي ماريا بأن أحضر لك كوب قهوة وكرواسون، طالما أتصرف باحترام تام».

وأضاف ضاحكاً: «أتصوّر أنها تظنّك مستيقظة وقد ارتديت ملابسك الآن. لو علمت أنّك مازلت في السرير، مرتدية ثياب النوم، ستصاب بنوبة..».

تذكيره لها بذلك جعلها تحمرّ خجلاً، وتسرع بجذب اللحاف نحو صدرها.

وتنهّد قائلاً: «الاحتشام فضيلة عند المرأة، إلاّ أنه يفسد بهجة الرجل».

توهّج خدا نيكولا لشدّة الخجل، بينما تابع يقول: «ماريا صارمة جداً ونحن جميعاً نخاف منها».

فكرة أن يخاف دومينيك من أيّ امرأة، ومن مدبرة منزله تحديداً، جعلتها تبتسم.

بدت ابتسامتها ساحرة تضيء عينيها الخضراوين وتزيدها دفئاً وسحراً،

ما أضفى على وجهها تألقاً وروعة جديدين.

وقف دومينيك مكانه يملأ عينيه من جمالها، يتأمل شعرها القمحي الذي انسدل على كتفيها، وعنقها الطويل الرشيق، والطريقة التي رفعت بها اللحاف لتغطي به نفسها...

اضطربت لنظرته الثابتة، فجذبت اللحاف نحوها أكثر. وإذ رأى ضيقها، وضع الصينية على ركبتيها ثم جلس على حافة السرير، وهو يحذّرها ساخراً: «لا تخبري ماريا».

نظرت نيكولا إلى الصينية فرأت إبريق قهوة فضياً صغيراً، وإناء سكر أسمر، وفنجاناً تحته صحن موضوعين على فوطة مطرزة، فضلاً عن وردة واحدة حمراء.

حدّقت إلى الوردة كالمسحورة ورفعت عينيها فالتقتا بعيني دومينيك.

نقلت العينان الرماديتان رسالة صامتة إلى العينين الخضراوين جعلت قلبها يمتلىء سعادة.

قالت بصوت أبّح: «شكراً. إنها رائعة».

بدت الوردة في مرحلة التفتح، ذات لون أحمر قرمزي داكن، وأوراقها يانعة قاتمة الخضرة.

حالما رفعتها نيكولا إلى أنفها لتشمها، وخزت إصبعها شوكة فصرخت بشكل لا إرادي.

رأى دومينيك قطرة من الدم تسيل من إصبعها فأخذ منها الوردة وألقى بها من دون اهتمام على المنضدة بجانب السرير، وأخرج منديلاً من جيبه ليمسح قطرة الدم عن إصبعها.

تمتم وهو يلف المنديل على إصبعها ويضغط عليه: «يجب أن يكون المرء حريصاً مع الورود».

فقالت بصوت مختنق: «لا بأس، أظنّها على ما يرام».

ترك يدها ثم قال مفكراً: «ربما كان عليّ أن أنشىء مستنبتاً زجاجياً للأزهار».

فهزّت رأسها: «المستنبتات توحي بالتكلّف. أنا أفضل حديقة ورود طبيعية حتى لو كانت مليئة بالأشواك».

ألقى عليها نظرة غريبة متسائلة: «أو ربما حلية ذهبية تشبه الوردة؟»

تلاشى كل شعور بالسعادة أحست به: «ما زلت تظنني صائدة ثروات؟»

- ما كنت لأعبر عن ذلك بمثل هذه الوقاحة. لكني لم أقتنع بالعكس حتى الآن.

شعرت نيكولا وكأن يداً باردة اعتصرت قلبها، فقالت: «كما سبق وأخبرتك الليلة الماضية، أنا لست كذلك. والآن أخرج من هنا أرجوك».

فقال برفق: «طردك لي من غرفتك أصبح عادة».

فاحمرّ وجهها: «آسفة. لن أفعل هذا مرة أخرى. سأرحل حالما أرتدي ثيابي».

فهزّ رأسه: «آسف لأنني لن أسمح لك بالرحيل».

- لا يمكنك أن ترغمني على البقاء هنا رغم إرادتي.

لكنها عادت فتذكّرت كيف تراجعت عن اعتراضها في الليلة السابقة، فسكتت مترددة.

- لن يكون ذلك رغم إرادتك. إذا فكّرت في المسألة بشكل منطقي، فأنا واثق من أنك ستوافقينني الرأي. نحن في قمة الموسم السياحي والفنادق كلها مزدحمة ولن تجدي فيها غرفة لك...

أوشكت نيكولا أن تقول إنها ستجرب حظّها عندما تابع يقول بهدوء: «لكن الأهم من ذلك هو الحاجة إلى منع الأقاويل».

فسألته بحيرة: «الأقاويل؟»

- الخبر ينتشر بسرعة في مجتمع محافظ كمجتمع فينيسيا، وخصوصاً بين أصدقائي. سيستغربون إذا لم يسكن الشخص الذي ورث القصر، فيه. إنّ إسم «لوريدان» عريق وارستقراطي وما زال محترماً للغاية. ومجرد الهمس بأن زوج صوفيا لوريدان ترك مثل هذا الإرث لفتاة شابة رفضت الأسرة

استقبالها، سوف يحدث فضيحة، وهذا ما لن أسمح به على الإطلاق.

ردّت بحدة: «سأنتقل إذاً إلى «كا - مالفازيا». لا أحد سيعترض على إقامتي فيه».

فقال بهدوء: «أنا سأعترض. إن القصر لم يُقسم قانونياً قط، و«كا- مالفازيا»، في الواقع، ما زال جزءاً من القصر».

- ماذا تعني بقولك (في الواقع)؟

- أعني أن بإمكاني الادعاء بذلك. إذا وصلت الدعوى إلى المحاكم ستأخذ وقتاً طويلاً. لا ندري من سيربح في النهاية. لكن، في نفس الوقت، يمكنني بكل تأكيد، أن أمنعك من السكن فيه.

منحها لحظة لتفكّر في الأمر قبل أن يتابع: «والآن، بدلاً من أن نصل إلى هذا الوضع المزعج، أليس من الأسهل أن تمكثي هنا إلى أن تقرّري ماذا ستفعلين به؟»

سألته وهي تتوقع الجواب سلفاً: «ماذا تريدني أن أفعل به؟»

- أن تبيعيني إياه.

- بسعر زهيد؟

- بل بسعر السوق.

- وماذا لو رفضت البيع؟

- إذن سيكون لديّ جارة رائعة الجمال.

- ألا تعني شوكة في خاصرتك؟

نظر إليها بعينين لامعتين: «يمكنك أن تكوني كذلك إذا أردت، لكنني أرجو ألاّ تختاري هذا الطريق بالذات. من الأفضل لكلينا أن نكون صديقين..».

وأضاف بلهجة تحمل لمحة من التهديد: «ولمصلحتك يا نيكولا يجب أن أنبّهك إلى أنني عدو سيء تماماً إذا ما اضطررت لذلك».

نعم، إنّها لا تشك في أنّ بإمكانه أن يكون قاسياً تماماً.

وتملكتها رجفة. ورأى ذلك فابتسم ابتسامة ذات معنى: «الآن وقد

أصبحنا نفهم بعضنا البعض، ربما من الأفضل أن نكمل علاقتنا على أساس ودّي».

وعندما لم تجب عاد يقول برقّة: «وبينما تستمتعين بإجازتك وتقرّرين مستقبلك، ستكونين ضيفة مكرّمة في بيتي».

فسألته بمرارة: «ألا تعني سجينة؟»

فقال ساخراً: «كم هذا مثير! حاولي فقط أن تعتبري القصر فندقاً».

ـ آسفة، لا أستطيع أن أعتبره سوى سجن.

ـ حسناً، إنّه سجن مترف على الأقل، ومناسب لطراز الحياة المفضّل لديك... وهو، طبعاً، سجن (مفتوح). لديك الحرية في الذهاب والمجيء كما تشائين.

ـ لكن تحت المراقبة من دون شك؟

ـ أنا لا أقوم بأي شيء لا أعتبره ضرورياً.

وسار نحو الباب تاركاً لها أن تفسر كلامه كما تشاء. وعند العتبة التفت إليها: «بما أنني أنهيت أعمالي في الصباح، قرّرت أخذ عطلة بعد الظهر. أرجو أن توافيني للغداء في الحديقة عند الساعة الواحدة..».

رغم انتقائه للكلمات بحذر، إلاّ أنها أدركت ما يعنيه في الحقيقة... إنه يتحداها.

لكن قبل أن تجيب، كانت بحاجة إلى وقت للتفكير... بينما أضاف هو: «إذا كان كاحلك أحسن حالاً».

أدركت أنه سوف يأتي إليها بنفسه إذا قالت إن كاحلها ليس على ما يرام. فقررت عدم المجازفة حالياً على الأقل، وقالت تطمئنه ببرودة: «أنا واثقة من أنه سيكون كذلك».

ـ هذا حسن.

وخرج ثم أغلق الباب خلفه.

شعرت نيكولا وكأنها وضعت في آلة لعصر الغسيل، فسكبت لنفسها فنجان قهوة وأضافت القشدة ثم أخذت ترشفه شاردة الذهن، وهي تفكّر في

الخيارات المتوفّرة لديها، والتي لم تكن كثيرة...

بإمكانها أن تترك كل شيء وتذهب إلى موطنها على الفور. لكنها سرعان ما استبعدت هذا الخيار. فبالرغم من أنّها لم تعد تأمل بأن تغير رأي دومينيك فيها، إلا أنّها لن تسمح له بأن يضطرها إلى الرحيل.

خيارها الثاني هو أن تبحث عن مكان آخر تقيم فيه. لكنّها واثقة من أنّ بإمكانه أن يمنعها من الإقامة في «كاـ مالفازيا» إذا أراد ذلك. بالإضافة إلى ما يسببه هذا الانتقال من أقاويل، الأمر الذي يحرص دومينيك على تجنبه... لكن تحدّيه سيعني مواجهة جادّة وخطيرة. وستكون مغامرة كبرى منها لو جرّته إلى تحقيق وعيده. ولا شك أنّ تهديده لها لم يكن مزاحاً. وسيصبح دومينيك عدوّها، وهذا يعني الدخول معه في حرب؟ حرب ستنتهي غالباً بهزيمتها، بسبب نفوذ دومينيك القويّ.

وبهذا يبقى الخيار الثالث والأخير، وهو أن تقبل بما لا مناص منه وتبقى في القصر.

وبذلك، تبقى العداوة مستترة، ما يمنحها الوقت لتقرر ما ستفعله.

كانت تعلم أنها لا تريد أن تتخلى عن «كاـ مالفازيا» وأنها لولا دومينيك لما فكرت في ذلك على الإطلاق.

لكنه يريد استعادة ذلك المنزل وإذا نظرت إلى المسألة من وجهة نظره، فيمكنها أن تفهم السبب...

استيقظت من أفكارها ونظرت إلى ساعتها. إنها الثانية عشرة والنصف، ولم تشأ التأخر عن موعد الغداء.

إذا قرّرت أن تكون ضيفته، فمن الأفضل أن تجعل الأمور تسير بهدوء قدر المستطاع.

وضعت الصينية جانباً ونهضت من السرير، وسرّها أن تشعر بأن كاحلها أصبح طبيعياً تقريباً. وقع نظرها على الوردة الملقية على المنضدة بجانب السرير. لا زالت الوردة جميلة، لكنّ نيكولا نظرت إليها الآن بشعور مختلف. لم تدرِ إن كان عليها أن ترميها في القمامة أو تتركها على المنضدة

لتذوي.

لكن بالرغم من تيقّنها أنّ هدية دومينيك هي مجرد سخرية فارغة، إلا أنها حملتها معها إلى الحمام ووضعتها في كأس ماء.

اغتسلت ومشطت شعرها. ورغم البرودة المنعشة في الغرفة، فكّرت نيكولا أن الشمس في الخارج محرقة، ولذا وبدلاً من تزيين وجهها، وضعت لوناً خفيفاً على شفتيها وكريماً على بشرتها.

وبعد أن رفعت شعرها عند قمة رأسها كالعادة، ارتدت ثوباً بسيطاً وحذاءً من دون كعب. وفي الواحدة إلا خمس دقائق وبعد أن استكملت دفاعاتها، اندفعت خارجة من الغرفة.

وقفت عند أسفل السلّم الكبير مترددّة، متسائلة أيّ من هذه الأبواب الكثيرة تؤدي إلى الحديقة. وفي تلك اللحظة، ظهر خادم فضي الشعر، انحنى أمامها وقال بلغة إنكليزية ممتازة: «طلب مني السيد أن أرشدك إلى الحديقة... فهلاّ لحقت بي...».

عندما سارت نيكولا خلفه، اكتشفت أنّ القصر أكثر اتساعاً وفخامة ممّا ظنّته في البداية. لقد تبدّل عبر القرون وجدّدت بعض أجزائه، وهو مستطيل الشكل يتوسّطه فناء وحديقة.

لم يظهر في الخارج أي أثر لعاصفة الليلة الماضية. فبدت الأرض جافّة والهواء دافئاً وساكناً يعبق بشذا الورود.

وسط الفناء المبلط رأت نافورة يندفع الماء فيها من كومة صخور فينساب فوق تماثيل لثلاثة جياد بيضاء فتبدو وكأنّها تعدو بأقصى سرعتها تحت رذاذ الماء.

كان دومينيك يجلس في زاوية مشمسة، متكئاً على أريكة، وهو يضع نظارات داكنة ينظر إلى رزمة من الأوراق.

شعرت نيكولا بحافز يدفعها إلى الهرب، لكنّها حاولت أن تبدو هادئة متزنة وحملت نفسها على السير نحوه.

عند وصولها ألقى بالأوراق والنظارات جانباً ثم وقف باسماً ليقوم

بدور المضيف المهذب تماماً.

لم تبادله نيكولا ابتسامته، فمدّ يده وأمسك بيدها. تأثرت بلمسته كالعادة، لكنّها، بعد أن قرّرت التمسك بدفاعاتها ومعاملته بتهذيب جاف، تركت يدها في يده لحظة، قبل أن تسحبها.

مال برأسه قليلاً، متفحصاً ثوبها الحريري ذا اللون الأخضر والرمادي، ثم قال: «تبدين باردة ومنتعشة وهذا أمر غير عادي في مثل هذا الجو الحار».

لم تعرف بما تجيب على إطرائه غير المتوقع هذا، ثم وجدت نفسها تقول بتكلّف: «النافورة تجعل الأشياء تبدو باردة، بشكل ما».

ـ اعتدت في صغري أن أتسلقها بثيابي وأركب على الجياد، رغم علمي بأن هذا ممنوع. كان الرعب يتملّك ماريا لخوفها علي. وذات يوم، رفضت الخروج عندما طلبت مني ذلك، فاضطرت إلى الخوض في الماء لتمسك بي...

وجدت نيكولا نفسها تبتسم شاعرة بالتسلية والفضول لهذه اللمحة عن طفولة دومينيك. وخطر لها أن ابتسامتها هي ما أراده دومينيك بالضبط من وراء سرده لهذه القصة.

في إحدى زوايا الحديقة أقيم مقصف للطعام تظلله عرائش العنب.

جلس دومينيك على كرسي قبالتها وراح ينظر إلى وجهها المعبّر، ثم قال بابتسامة عريضة: «طلبت من ماريا إعداد وجبة بسيطة. هل أسكب لك بعض العصير؟».

ـ لا، شكراً. أفضّل الماء.

سكب ماء مثلجاً في كأسين.

ـ لا بد أنك جائعة فأنت لم تتناولي الفطور. ما الذي تريدين أن تبدأي به إذن؟ أتفضلين طعاماً خفيفاً كالمأكولات البحرية مثلاً؟

أثناء الغداء، راح يحدثها عن مختلف المواضيع بسهولة ومرح، وكأنه يهدف إلى التخفيف من حدة شكوكها وغضبها. وصمّمت نيكولا على أن تتمثل به، فأخذت تجيبه بنفس الأسلوب. وشيئاً فشيئاً وجدت نفسها ترتاح

إلى تمثيل دور الضيفة المرغوب بها كما أرادها أن تكون.

أثناء تناول القهوة، وبعد ملاحظة أدلت بها نيكولا عن جمال الكؤوس، تطرقا إلى الحديث عن طريقة صنعها، فقال دومينيك: «فينيسيا مشهورة بصنع الزجاج منذ أكثر من ألف سنة. وما زال هناك عدد كبير من أفران الزجاج، إذا شئت أن تري نافخي الزجاج أثناء العمل».

فقالت بلهفة: «آه، نعم. أودّ ذلك».

ـ حسناً، إذا لم يعد كاحلك يؤلمك، فيمكننا أن نذهب إلى جزيرة «مورانو» عصر اليوم. هناك حرفيّون حقيقيون قادرون على إنتاج أروع الأعمال... أعمال كهذه، مثلاً.

وأشار إلى الزهرية التي تتوسط المائدة، والتي تبدو قطعة فائقة الإتقان.

فقالت نيكولا: «إنها رائعة. هل هي حديثة الصنع؟»

ـ نعم، اشتريتها هدية زفاف لأمي وجون. لا أظنه اهتم بها كثيراً لكن أمي عشقتها. وعندما ماتت سألني إذا كنت أحب أن أستعيدها.

ـ لا أستطيع أن أفهم عدم إعجاب جون بها، فقد كان يتذوق الجمال.

ـ هذا واضح.

عضّت شفتها، غاضبة من نفسها لإدلائها بهذه الملاحظة التي منحته فرصة لمثل هذا التعليق.

وبعد لحظة، تابع يقول بهدوء: «هناك أمر أحب أن أسألك عنه. بما أنكما، أنت وجون، كنتما صديقين حميمين، لماذا لم تأتي إلى جنازته؟»

ـ لم أعلم بوفاته إلاّ بعد ثلاثة أسابيع فقد كنت أعمل في مكان بعيد.

وعندما سمع نبرة الأسف والحزن واضحة في صوتها، قال: «حسناً، إذا كنت تودين زيارة قبره في فينيسيا...».

فقطّبت جبينها: «علمت أنه مات في روما».

ـ هذا صحيح، لكن أمي أوصت بأن يُدفنا جنباً إلى جنب، فأحضرناه إلى مدافن الأسرة في سان ميشيل.

فهتفت بحرارة: «ما أجمل هذا! هذا ما كان يريده هو أيضاً..».

وتهدّج صوتها واغرورقت عيناها بالدموع. فسألها دومينيك مقطّباً جبينه: «هل أحزنك موته حقاً؟»

غالبت نيكولا دموعها وأخذت نفساً عميقاً لتهدىء نفسها: «نعم، وكما سبق وأخبرتك، كنت مولعة به جداً».

ـ لقد ترك لك كل شيء، ألم يعوّضك ذلك عن موته؟

ـ لا شيء يعوض عن فقد شخص عزيز، وجون من الأشخاص القلائل الذين يمكنني أن أدعوهم أصدقاء.

ـ لكنه كافأك بأكثر من مجرد تقديم الهدايا لك بجعلك وريثته.

فقالت ببرودة: «لا أدري ماذا تعني. جون لم يقدّم لي الهدايا قطّ».

ـ أبداً؟

ـ أبداً، على الإطلاق.

فسألها وعيناه متصلبتان كحجر الصوّان: «هل أنت واثقة من ذلك؟»

ـ واثقة تماماً.

وأضافت بقنوط: «ماكنت لأقبل الهدايا منه قطّ».

ـ هذا غريب، لأني أعتقد أنه أعطاك خاتماً ذهبياً يُعتقد أنه يجلب الحظ.

فتوهّج وجهها: «آه، لكنه لم يعطني..».

ـ لا تزعجي نفسك بالإنكار. رغم أن مولر لم يجد له أثراً حين فتش حقيبتك، إلاّ أنني واثق تماماً...

صرخت ثائرة: «كيف تجرؤ على أن ترسل شخصاً ليفتش أمتعتي؟ ليس لديك الحق على الإطلاق...».

فأجاب: «لديّ كل الحق عندما أكون مقتنعاً بأن لديك شيئاً يخصّني».

ـ إذن، أنت لا تعتبر فقط أني أسعى وراء المال، بل تعتبرني لصة أيضاً؟

توتّرت شفتاه: «ذلك الخاتم عزيز جداً عليّ، وكان ينبغي أن أحتفظ به».

ـ ولماذا لم تفعل؟

ـ أثناء جنازة أمي لاحظت أن جون يضعه في سلسلة حول عنقه. أردت

أن أطلبه منه حينذاك، لكنه بدا بالغ الذهول والخبل، فلم أستطع أن أحمل نفسي على ذلك. ثم غادر فينيسيا في الصباح التالي، وعندما استطعت أن أعثر عليه وطلبته منه رفض أن يتخلى عنه، وأقسم أنّ أمّي أعطته إياه وهي على فراش الموت. . .

ـ حسناً، إذا كان هذا ما قاله، فمن المؤكد. . .

فتابع غير مهتم بمقاطعتها له: «لكنه كان إمّا كاذباً وإمّا مخطئاً. فأنا متأكد من أنها ما كانت لتفعل أمراً كهذا».

ـ ما الذي يجعلك متأكداً بهذا الشكل؟

ـ لأن الخاتم متوارث في العائلة. وبعد موت جون كان الخاتم أول ما افتقدنا، لكنّنا لم نجد أثراً له بين ممتلكاته الشخصية.

ـ وهكذا خطر لك أنّه عندي؟

ـ أظنّني على صواب، أليس كذلك؟ رغم أنّك مازلت تنكرين ذلك.

ـ أنا لا أنكر أنّه عندي. ما أحاول أن أنكره هو أنّ جون أعطاني إيّاه.

ـ إذن، أنت تعترفين بأنّك سرقته؟

ـ لو أصغيت إليّ، لفهمت حقيقة الأمر. جون لم يعطني الخاتم بالطريقة التي تعنيها. لقد وصلني مع الرزمة التي أرسلها لي المحامي بعد وفاة جون، مع مفاتيح «كا ـ مالفازيا».

ـ هل علمت أنّه لأمّي؟

ـ نعم، أعلم أنّه لزوجة جون.

وبغضب هادىء، قال دومينيك: «لم يكن لديه الحق في أن يمنحه لأحد. إنه أحد الخواتم النادرة التي تجلب الحظ. وهذا يجعله لا يقدّر بثمن».

***

٨ ـ خياران فقط!

قالت نيكولا بمرارة: «كان عليّ أن أدرك منذ البداية أنّ المسألة كلّها مسألة مال».

ـ أتحاولين إقناعي بأنّك لا تعلمين أنه يساوي ثروة؟

ـ أنا لا (أحاول) أن أقنعك. إنّه مجرّد حلية قديمة بالنسبة إليّ. ولم أعرف كم يساوي إلاّ الآن.

ـ بالإضافة إلى قيمته المادية، تتوارث أسرة لوريدان هذا الخاتم منذ بداية القرن السابع عشر. وهو ينتقل جيلاً بعد جيل إلى زوجة الإبن الأكبر، أو البنت الكبرى في الأسرة إذا لم يكن ثمة أبناء ذكور.

فقالت ببطء: «فهمت».

ـ لكنك لا تشعرين بالذنب؟

دفعها الغضب إلى أن تهبّ واقفة وقد احمرّ وجهها: «ولماذا أشعر بالذنب؟ أنا لم أكن أعرف كل هذا. . .».

فأمرها بهدوء: «اجلسي من فضلك».

عادت إلى مقعدها شاعرة بالاشمئزاز: «كلّ ما أعرفه هو أنّ الخاتم كان لزوجة جون وأنه أرادني أن آخذه. . .».

وسكتت فجأة بعد أن لمحت رجلاً طويلاً حسن المظهر ذا شعر أسود مجعّد، يقف في ظل عريشة على بعد أمتار. ظنّت نيكولا في البداية أن دومينيك يشبه جيف، لكنّ هذا الرجل يشبهه أكثر.

رآها دومينيك تمعن النظر من فوق كتفه فالتفت وقال: «ما الذي تفعله

هنا؟»

رمقه الشاب بنظرة ساخرة، ثم خرج من الظل: «يبدو أنك نسيت أنني أعيش هنا».

- لكن يجدر بك أن تكون الآن في اجتماع هام في «ميستري».

- نعم. لكنني لم أشعر بالرغبة في الذهاب.

وإذ رأى فك دومينيك يتوتّر بشكل ينذر بالشرّ، أسرع يقول: «أشعر بوجع في بطني منذ يومين. منذ أكلت ذلك..».

- وفّر عليك العذر.

- إسمع، طلبت من إحدى السكرتيرات أن تحضر الاجتماع وتسجّل الملاحظات...

دفع دومينيك بكرسيه إلى الخلف ووقف والغضب ينضح من كلّ خلية فيه: «هذا الاجتماع مخصّص للبحث في مشروع «زينيل». وإرسال إحدى السكرتيرات لتسجّل ملاحظات ليس كافياً».

- أنا واثق من أنّ روزا لن تخذلني، فهي تعزّني جداً.

بدا الاشمئزاز على وجه دومينيك وقال ببرودة: «أوضحت لك أنّنا بحاجة إلى حضورك الشخصي هناك».

- لكنّني لا أعرف شيئاً عن مشروع «زينيل» الجديد.

- كنت ستعرف الكثير لو أنك أزعجت نفسك بحضور الاجتماع.

- حرارة الجوّ اللعينة لا تسمح لي بالجلوس في اجتماع ممل، خاصّة أن صحّتي متوعكة.

وبلهجة تحمل تمرّداً خفياً أضاف: «كما أنني لا أراك تعمل».

- كنت أعمل في البيت.

فقال القادم الجديد وهو ينظر إلى نيكولا بإعجاب: «إنه عمل رائع إذا استطاع المرء الحصول عليه».

فقال دومينيك بحدّة: «عليك أن تحافظ على أدبك».

ثم التفت إلى نيكولا وقال بلهجة رسميّة: «أرجو أن تقبلي اعتذاري.

فالشجار أمام الضيف هو قمّة السلوك السيء».

فقال الشاب بمرح: «أنا لا أسمي هذا شجاراً. إنه مجرّد عدم انسجام بين الأخوة..».

إنه دايفيد إذن! لقد سبق وتكهّنت بذلك لشدّة الشبه بينهما، لكنها أصبحت الآن متأكدة.

وتابع يقول مباهياً كصبي صغير: «ولا عجب في عدم الانسجام فرأس البيت يضع القوانين..».

بدا واضحاً أنه مصمّم على إزعاج أخيه. وأحست نيكولا بأن وجودها زاده وقاحة.

لكنّ دومينيك تمالك نفسه وعاد ليسيطر على الوضع بهدوء: «نيكولا، هل لي أن أقدّم إليك أخي دايفيد؟ هذه هي السيدة ويتني، يا دايفيد».

مدّ يده مصافحاً وهو ينظر في عينيها: «يسرّني التعرّف إليك، سيدة ويتني... أو هل يمكنني أن أدعوك نيكولا؟»

أجابت بحذر: «نعم، أرجوك».

- أظن أن زوجك ميت؟ لكنك أصغر من أن تكوني أرملة...

كان لا يزال ممسكاً بيدها، وأضاف متمهلاً: «يمكنني أن أفهم لماذا دعاك دومينيك للبقاء، رغم أنني مندهش لقبولك دعوته في مثل هذه الظروف..».

فقاطعه دومينيك فجأة: «هل تريد أن تتناول الغداء؟»

- لا. لقد أكلت قبل مجيئي.

سحبت نيكولا يدها وهي ترى دومينيك ينظر إليهما، فتركها دايفيد كارهاً، وهو يبتسم لها. وتابع حديثه: «على كلّ حال، أنا مسرور لبقائك، فأنت حتماً ستساهمين في إضفاء البهجة والإشراق على هذا البيت القديم».

فقالت بشيء من الارتباك: «لا أظنني سأبقى هنا طويلاً».

- إلى متى؟

- إلى أن أقرر ما سأفعله بالنسبة لبعض الأمور.

ـ أتعنين بيع «كاـ مالفازيا»؟ عليك ألاّ تفعلي ذلك. لماذا لا تنتقلين للعيش فيه، فتصبحين جارتنا؟ ليس لديك فكرة كم هو ممل العيش في...

ألقى دومينيك عليه نظرة أسكتته، ثم قال لنيكولا بلهجة رسمية: «أرجو معذرتك. عليّ أن أتصل ببرونو زينيل لأعتذر منه، ثم أرتب أمر إرسال شخص آخر لحضور الاجتماع».

ثم التفت إلى دايفيد وأضاف عابساً: «لكنني أود التحدّث إليك أولاً».

وجذب أخاه إلى ناحية أخرى وأخذ يعنّفه.

أخذت نيكولا تنظر إليهما، متأمّلة مدى التشابه والاختلاف بينهما. كان كلاهما طويل القامة، لكن دومينيك أقوى بنية، كما يبدو عليه النضج، وهو ما يفتقر إليه أخوه الأصغر. كما يتشابه الأخوان بشعرهما الأسود، لكن شعر دومينيك قصير منظم، أما شعر دايفيد فخصلاته ثائرة. كان دايفيد يبدو للوهلة الأولى أكثر وسامة من أخيه. لكن النظرة الثانية تكشف عن فم منقاد لأهوائه وذقن ضعيفة، ما يجعل وسامة دايفيد متواضعة إلى جانب جاذبية أخيه وشخصيته القوية.

انتهى الحديث، فألقى دومينيك نظرة قصيرة باتجاه نيكولا، ثم عاد إلى القصر، بينما عاد دايفيد إلى جانبها واحمرار خفيف يكسو وجنتيه.

خلع سترته وألقاها بعدم اهتمام على أقرب أريكة، ثم انهار على أحد الكراسي متأنفاً.

سألته متعاطفة: «هل يحدّثك بغطرسة؟»

ـ حذّرني لأنتبه عند التحدّث إليك، وعنّفني بشدة ما جعلني أدرك أنه مغرم بك...

هزّت نيكولا رأسها وشعرت بوجهها يتوهّج: «أنا واثقة من أنك مخطىء. فهو لا يشعر نحوي حتى بالمودّة... بل على العكس تماماً».

فسألها بدهاء: «لماذا دعاك للإقامة هنا؟»

لم ترغب نيكولا في أن تشرح له الأمر، فقالت: «أظنه يريدني هنا لكي... يراقبني».

ـ ولا شك في أنه سيضغط عليك ليجعلك تبيعين «كاـ مالفازيا»؟

ـ نعم.

ـ إنه متلهّف إلى استعادته.

ـ يمكنني أن أفهم ذلك، ما دام يعتبره جزءاً من المنزل.

فسألها بفضول: «وهل ستبيعينه؟»

ـ لا أريد ذلك، ولكن...

ـ لا تبيعيه إذن، لا يستطيع إرغامك على ذلك.

ـ ربما لا. لكن بما أنّ الأمور...

ـ لا تدعيه يرهبك لكي تقومي بأمر لا تريدينه. عليك أن تحاربيه طوال الوقت.

لكنّ قلبها لا يطاوعها على محاربته. وما الفائدة؟ إذا ربحت المنزل، فسيكرهها دومينيك حتماً. وهي لا تطيق أن تعيش بجواره، عالمة أنه لا يريدها هنا.

رأى دايفيد نظرة اليأس في عينيها، فقال متكهّناً: «هل أنت خائفة من الفشل؟»

ـ بل خائفة من نجاح أجوف لا بهجة فيه.

ـ أخي يعرف تماماً كيف يرهب الناس.

وضحكت فجأة وهو يعترف: «عندما يغضب دومينيك حقاً، يخيفني حتى الموت... والبوم كان يتميز غيظاً. طلب مني أن أتركك وشأنك، وعنّفني بلسانه اللاذع لأنني لم أذهب إلى ذلك الاجتماع، واصفاً ذلك بأنه وقاحة».

وأضاف بفروغ صبر: «أتمنّى لو أنني لا أعمل معه».

شعرت نيكولا بالارتياح لأنها نسيت مشاكلها لفترة وهي تتحدث معه عن مشاكله، ووجدت نفسها تسأله: «هل أنت مرغم على العمل معه؟»

فقال بأسف وهو يسكب لنفسه كأس عصير: «إذا لم أعمل معه لن أحصل على المال. فدومينيك يمسك بيده كل شيء. أنا أكره العيش في قبر

فخم مثل فينيسيا. وحالما يسمح لي الحظ سأرحل إلى الولايات المتحدة..».

وبمرارة بالغة، تابع يقول: «لكنني مضطر إلى البقاء هنا حالياً، فالأخ الأكبر أقنع ماما بأنني إذا حصلت على إرثي بأسرع ممّا ينبغي فسأبدّده».

ـ هل هو من أقنعها بذلك؟ أظن أن أمّك كانت تقرّر ما تريده بنفسها.

ـ حسناً، سواء أقنعها هو أم أنها قررت ذلك بنفسها، فالنتيجة واحدة.

سألته: «ألا يمكنك أن تعمل مع شخص آخر»؟

ـ حاولت ذلك مرّة لكن الراتب الذي عرض عليّ كان زهيداً، كما توقعوا مني أن أعمل خمسة أيام في الأسبوع.

ـ ما أصعب هذا!

تبسّم لتهكّمها هذا، ثم تابع: «عندما أعمل مع دومينيك أحصل على علاوات بصفتي شقيق الرئيس، وأثناء غيابه أفعل ما يحلو لي».

لم تعد نيكولا واثقة مع من عليها أن تتعاطف، وكانت على وشك أن تقول إنّه ليس مظلوماً في الحقيقة، عندما سألها: «ماذا تفعلين بقية هذا النهار؟»

ـ حسناً، لا أعرف في الحقيقة...

ـ هل رأيت الكثير من معالم فينيسيا؟

ـ لا. وصلت بالأمس فقط. وقد اقترح أخوك أن نزور «مورانو»، ولكن...

فقال بطمئنها بثقة: «لن تري دومينيك مرّة أخرى قبل موعد العشاء، فالعمل هو شغله الشاغل. ولعله ذهب إلى «ميستري» لئلا يخسر التعامل مع زيتيل..».

وعندما رأى ما لاح على وجهها، سارع يقول: «شعرت بتشنّج في المعدة، لكنّ دومينيك قاسي القلب، ولم يصدّقني».

ولم تصدّقه هي أيضاً، فقالت: «أنا لست واثقة تماماً من أنّه هو الملام».

فقال متذمراً بظرف: «لا أفهم حقاً كيف يمكن لامرأة رائعة الجمال مثلك أن تكون بالغة الفظاظة. ظننتك مليئة بحنان الأنوثة».

فقالت: «قد أكون كذلك إذا اقتنعت فعلاً أن عطفي له ما يبرّره».

وعندما رأت أنّ كلامها جرحه، سارعت تقول: «حسناً، عذرك يبدو واهياً نوعاً ما».

فقال بشهامة: «أتعلمين؟ سأصفح عن شكوكك بي إذا خرجت معي عصر هذا اليوم».

ذكّرت نفسها بقرارها أن تجعل الأمور تسير بيسر، فهزّت رأسها: «لا. أفضّل ألاّ أخرج».

ـ لأنك تظنين أن دومينيك لن يوافق؟

ـ أنا واثقة من أنه لن يوافق.

ـ وماذا إذا لم يوافق؟ هل تخافين منه حقاً؟

ـ أنا طبعاً غير خائفة منه.

أنكرت ذلك عندما رأت ابتسامة دايفيد الساخرة، وسارعت تقول: «لكنني ظننتك تخاف».

ـ فقط عندما يكون موجوداً.

شعرت نحوه بشيء من الصداقة، فقالت بجدّية: «لكن لا بدّ أنك تعلم أنّ هذا يجلب المشاكل..».

ـ نحن أحرار، وليذهب هو إلى جهنم. على كلّ حال، كيف له أن يعلم؟

ـ إذا عاد ووجد أننا خرجنا...

ـ لن يعود. عندما يبدأ بالعمل ينسى كل شيء آخر.. من المؤكد أنّك لا تريدين أن تبقي هنا جالسة لبقية النهار.

لا، لم تكن تريد هذا فيما فينيسيا بروعتها في متناولها. وفجأة، شعرت بفروغ صبر، وتعب من الخمول، وأرادت أن تخرج وتجول في الأنحاء.

لو أن دومينيك قال شيئاً عن عودته... أو طلب منها أن تنتظره... لكنّه لم يفعل.

رأى دايفيد تردّدها فألح عليها: «آه، هيّا... أنت لست سجينة هنا،

وسنعود حتى قبل أن يفتقدنا».

ـ حسناً، ربما لمدة ساعة أو نحو ذلك.

فصاح منتصراً: «يا لفتاتي الطيبة!».

وتذكرت فجأة، فسألته: «ولكن ألا تشعر بألم في بطنك؟»

ـ الألم تحسن كثيراً...

ـ سأصعد قليلاً إلى غرفتي لأحضر حقيبة يدي. فقد أحتاج إلى مزيد من الكريم الواقي من حروق الشمس.

ـ هل نقيمين في الجناح الشرقي؟

ـ نعم.

ـ في أي غرفة؟

وعندما تردّدت، قال مخمّناً بابتسامة عريضة: «أراهن أن دومينيك أعطاك الغرفة المجاورة لغرفته».

لاحظ اضطرابها الذي لم تتمكّن من إخفائه، فأضاف بشيء من الخبث: «أنا لا ألومه».

ثم سارع يقول: «لا حاجة بك للغضب، أنا أمزح فقط... والآن، إذا صعدت من السلم الخلفي، فستوفرين الوقت».

ـ لا أدري أين هو السلم الخلفي.

ـ تعالي، سأريك إياه.

التقط سترته، ثم أمسك بيدها وأسرع بها يهبط الدرجات ثم يعبر الفناء إلى باب صغير خلف المنزل.

أشار دايفيد إلى أعلى وقال: «إذا دخلت من هذا المدخل المقوّس واستدرت إلى اليسار، تجدين ممراً يؤدي مباشرة إلى الجناح الشرقي. سأنتظرك هنا..».

أحسّت نيكولا بالتوتر، حتى أنها شعرت تقريباً بالذنب. لكنّها اتّبعت تعليماته فوصلت إلى باب غرفتها. عندما أصبحت في غرفتها تنفست بارتياح، وحدّثت نفسها بحزم أن من السخافة أن تشعر بالذنب، فهي لا

تقوم بتصرف خاطىء.

وتجاهلت صوت العقل الذي حذرّها من اللعب بالنار وفتحت حقيبتها ووضعت فيها الكريم الواقي من حروق الشمس وبعض المناديل الورقية. أقفلت الحقيبة، ثم تذكرت فجأة ما أخبرها به دومينيك عن خاتم صوفيا الذي لا يقدّر بثمن. ففتحت الجيب الصغير في ظهر الحقيبة، وأخرجت الكيس الجلدي ووضعته في صندوق مجوهرات أمها.

أغلقت الباب خلفها بهدوء وأسرعت عائدة من الطريق الذي جاءت منه، ودقّات قلبها تتسارع بشكل سخيف. كان دايفيد بانتظارها، فسألها: «هل رأيت أحداً؟».

فهزّت رأسه نفياً. وسارا إلى باب متين مصنوع من خشب السنديان، فسمعت نيكولا صوت المياه تتلاطم على الأحجار من ورائه حتى قبل أن يدير دايفيد مقبض الباب.

كان الباب يؤدي إلى درجات متآكلة تنتهي عند فسحة ترسو فيها الزوارق. فقالت مفكرة بصوت مرتفع: «هذه ليست الطريق التي أخذني منها دومينيك الليلة الماضية».

فقال ضاحكاً: «لا. ذلك الطريق هو المدخل الرئيسي، أمّا هذه فهي طريق البائعين».

رأت البابين اللذين يؤديان إلى مرآب الزوارق مغلقين، لكن باباً جانبياً أدّى بهما إلى مرسى القوارب فأدهشها أن ترى زورقاً أسود ذا مقدمّة من الفولاذ في الانتظار.

حالما استقرا بجانب بعضهما البعض على الكرسي المنّجد، ابتعدت بهما «الغوندولا».

قالت: «كم هذا مثير!».

فقال: «لم أجرؤ على أخذ أحد القوارب من البيت لئلا يفتقدها دومينيك».

سألته بمرح: «أأفهم من هذا أنّك تهرب غالباً بهذه الطريقة؟»

فأجاب ببشاشة وعدم اهتمام: «نعم. هذا يوفّر مشاكل كثيرة وشروحاً مملّة».

كان الوقت قرابة العصر والشمس ترسل أشعتها من وسط السماء. وباستثناء بعض السياح الذين كانت وجوههم الحمراء تتصبب عرقاً، لم ترَ سوى القليل من الناس. يبدو أن الفينيسيين لجأوا إلى بيوتهم ليحتموا من حرارة الجوّ.

بعد فترة، انتبهت نيكولا إلى الروائح المتنوعة التي تنبعث من فاكهة وزهور، وقهوة مطحونة، وخبز طازج، وحلوى، وروائح المشروبات والبهارات المتنوعة... هذا إلى رذاذ المياه المتناثر على الدوام.

وفجأة تملّكها حزن بالغ... ليتها تستكشف هذه المناظر الجميلة برفقة دومينيك!...

- هذا يكفي يا جورجيو. سنسير من هنا على الأقدام.

كان هذا صوت دايفيد يخترق أفكارها.

وبعد أن خرجت نيكولا من القارب، دار حديث خافت بين السائق ودايفيد الذي عاد فلحق بها.

كانت أشعة الشمس محرقة، فشعرت نيكولا وكأن الأحجار التي يقفان عليها تقذفهما باللهب.

وضع دايفيد سترته على ذراعه والعرق يتصبب من جبينه، وقال: «الجوّ أشد حرارة مما ظننت. لا أعتقد أننا سنتمكن من السير في الأنحاء لنتفرج على المدينة. أتدرين؟ لمَ لا نسبح بدلاً من ذلك؟»

- نسبح؟

- إذا ذهبنا إلى «الليدو»، فيمكننا أن نرتاح تحت مظلة الشاطىء ثم نذهب للسباحة.

- يبدو هذا رائعاً... لكن ليس لدينا بذلات سباحة ولا مناشف ولا تسهيلات للتغيير...

- أنت مخطئة في هذا. أنا أستأجر غرفة تحتوي على كل ما هو مناسب،

وهذا الترتيب لا يعلم أخي عنه شيئاً، تعالي.

وأمسك بيدها يقودها إلى ما بدا لها أشبه بصف من سيارات الأجرة.

وعندما أصبحت على شبه الجزيرة، دهشت نيكولا وهي ترى أنه، بخلاف فينيسيا، كان هناك طرق مزدحمة تسير فيها السيارات والباصات وسيارات الأجرة.

استقلا سيارة أجرة إلى الفندق، وهو مبنى ناصع البياض مظللاً بالأشجار. بدا البهو بارداً ومنعشاً وخالياً تماماً إلاّ من شقراء جميلة تجلس خلف مكتب الاستقبال.

قال دايفيد بعفوية: «آخر مرّة كنت فيها هنا، تركت إحدى صديقاتي ثوب سباحة في غرفتي..».

وفجأة، أدركت ما عناه بقوله (غرفة تحتوي على كل ما هو مناسب) وأخذت تتساءل عما إذا أخطأت في قدومها إلى هنا. لكن الأوان فات الآن.

- أظن أن ثوب جينا يناسبك فقامتها تشبه قامتك، إذا كنت تحبين أن تستعيريه.

أوشكت أن ترفض بأدب، عندما أضاف وهو يشير إلى متجر يقع بجانب الردهة الرئيسية: «إلا إذا كنت تفضلين اختيار ثوب سباحة خاص بك، بينما أحضر أنا المفتاح».

أحضر دايفيد المفتاح، بعد أن تبادل الغزل والضحكات الطويلة الخافتة مع موظفة الاستقبال. بينما اختارت نيكولا ثوب سباحة محتشماً ودفعت ثمنه.

كانت غرفته في الطابق الأرضي وتطل على شاطىء خاص توزّعت عليه كراسي مستطيلة تعلوها مظلات. لا بد أن غرفة كهذه تكلّف كثيراً من المال، كما أخذت نيكولا تفكّر.

حالما انغلق الباب خلفهما، علّق سترته على ظهر كرسي، وجذب الستائر ثم أخذ يفك أزرار قميصه.

قالت نيكولا بهدوء: «أيمكنني أن أغيّر ملابسي في الحمام؟».

ودخلت الحمام وأقفلت الباب خلفها توخياً للأمان.

وجدت كومة من المناشف البيضاء والملوّنة. وبعد أن اختارت اثنتين منها، غامرت بالخروج ليحييها دايفيد بصفير استحسان منخفض.

بدا دايفيد جذاباً وهو يرتدي الشورت الأحمر الرياضي وفهمت هي تماماً ما تراه النساء فيه. لكن، بالنسبة إليها، لا يمكن مقارنته بقوة وجاذبية دومينيك. رؤيته لم تستطع أن تزيد نبضها خفقة واحدة.

نظر إلى السرير وقال: «لعلك تحبين أن تأخذي قيلولة أولاً».

ـ لا، شكراً.

ـ لا؟

وبدت عليه الدهشة، ثم قال وكأنه ينطق بحقيقة واقعة: «الكثير من النساء لا يستطعن مقاومة جاذبيتي».

ـ أنا أصدّقك، ولكنني لست واحدة منهن.

فقال يحثّها: «هيا، لا تتظاهري بذلك».

ـ لست بحاجة لذلك، وبصراحة، أرى أنّ مقاومة جاذبيتك ممكنة جداً.

قال بتذمر ساخر: «أنت تعرفين جيداً كيف تجرحين شعور الرجل».

فقالت وقد أعجبها منه تلقيه رفضها بهذه الروح الظريفة: «لكنني أراك ظريفاً حقاً».

ـ لسنا مضطرين للذهاب إلى السباحة بعد. سيكون الجوّ أبرد بعد ساعة أو نحوها.

فقالت بجفاء: «يجب أن أكون في القصر بعد ساعة أو نحوها».

فتنهّد: «إذن، فلنذهب».

* * *

بدا البحر أزرق صافياً ومنعشاً بينما كان الشاطىء الذهبي برمله الناعم نظيفاً منحدراً برفق. ورغم أن معظم الكراسي مشغولة، إلاّ أنهما تمكنا من

إيجاد كرسيين بجانب بعضهما البعض.

أخذا يسبحان حيناً ويتمددان حيناً آخر في الظل، صامتين أحياناً، ومتحدثين أحياناً أخرى بتكاسل، وهما يستمتعان بجوّ البهجة الذي يسبغه عليهما البحر والشمس والرمال.

استيقظت نيكولا من غفوتها الخفيفة ونظرت حولها، لترى أن الكثير من الكراسي أصبحت خالية.

ـ كم الساعة؟

فأجاب دايفيد بتكاسل وهو مغمض العينين: «لا فكرة لدي».

ـ أنا واثقة من أننا تأخرنا، ويجب أن نعود حالاً.

تبعها دايفيد كارهاً، ثم سار أمامها عبر الحديقة المظللة بالأشجار وهما عائدان إلى غرفته. وعندما فتح الباب المطل على الحديقة قال: «يمكنك أن تستعملي الحمام أولاً».

دخلت الحمام وخلعت ثيابها. كان شعرها ملتصقاً برأسها بسبب المياه المالحة، فنزعت الدبابيس وتناولت الشامبو. وحالما أنهت حمامها وجففت شعرها، لبست ثيابها وعادت إلى الغرفة وشعرها مازال منسدلاً على كتفيها.

حين رأت ما ارتسم على ملامح دايفيد سألته: «ماذا حدث؟»

ـ أنظري إلى الساعة.

فتحت حقيبتها وقد تملّكه فجأة إحساس بالقلق. حدقت إلى ساعتها وهتفت بغباء: «لا، لا يمكن أن تكون السادسة والنصف!»

ـ إنها الحقيقة مع الأسف، ولا يمكننا أن نصل إلى البيت قبل دومينيك.

فهتفت بذعر: «يا إلهي».

جمع ثيابه وقال: «اسمعي، سأحاول، أثناء الحمام، أن أقرّر ما نفعل».

ـ وماذا يمكننا أن نفعل؟

ـ سأخبرك عندما أجد دقيقة أفكر فيها.

عاد دايفيد بسرعة مرتدياً ملابسه وقد تألقت عيناه والتصق شعره برأسه. فسألته: «حسناً؟»

- لدينا خياران فقط. إما أن نعود إلى البيت مباشرة وننكر كل شيء بوقاحة وإصرار، لكنني أعلمك أنني لست ماهراً في التمثيل. وإما نتصرف بهدوء.

- ماذا تعني بقولك (نتصرف بهدوء)؟

- دومينيك سيعلم طبعاً أننا غادرنا المنزل لكنه لن يتأكد من أننا معاً. ثمة احتمال أن يكون كل منّا قد خرج بمفرده... والآن، اقتراحي هو التالي: علينا ألاّ نستعجل في العودة. بل ننتظر حتى يأوي إلى سريره...

- ولكن...

- يمكننا أن نتعشى في الخارج ونتفرّج على فينيسيا في الليل، ثم نعود. ونتسلل إلى الداخل كلٌ بفرده. ولن يعلم أحد أننا كنا معاً. وعندما نجتمع في الصباح نحيي بعضنا بعضاً وكأننا غريبان...

فسألته بتعاسة: «لكن ألا يعني هذا أننا سنكذب كثيراً؟»

- إذا سألني دومينيك فسأقول له إنني ذهبت إلى «الليدو»... وإذا سألك لا تذكري «الليدو»، بل قولي ببساطة إنك كنت تتفرجين على المدينة.

- وماذا إذا لم تنجح الكذبة؟

فهزّ كتفيه: «إذا لم تنجح، فلن نخسر شيئاً ما دام العقاب واحداً، فليكن إذن بسبب عمل كبير ومتعة كافية بدلاً من أن يكون لسبب تافه».

تردّدت نيكولا كارهة فكرة الكذب. لكن لا يمكنها لوم دايفيد فهي أيضاً ملامة جزئياً. فلو لم تكن من الغباء بحيث خرجت معه لما حدث كل هذا. وإذا اكتشف دومينيك أنهما كانا معاً، بعد أن أنذر أخاه بألاّ يفعل ذلك، فدايفيد سيدفع الثمن.

- لا بأس.

- يا لفتاتي الطيبة!

* * *

٩ - دون أمل

بالرغم من شعورها بالضيق كانت رحلة العودة إلى فينيسيا تجربة ممتعة. بدا الجوّ صافياً وأشعة الشمس تنعكس متراقصة على صفحة المياه. وبإلحاح من دايفيد، تركت نيكولا شعرها منسدلاً على كتفيها، فراح النسيم يعبث به فتتطاير خصلاته حول وجهها.

لاح من بعيد وسط المدينة التاريخي، بجسوره وأبراجه ذات الأجراس وكنائسه وقصوره الفخمة.

فقالت بصوت يعلو على صوت المحرك: «أليس هذا رائعاً؟»

فأجاب دايفيد بعدم اكتراث: «معظم الناس يظنّون ذلك. لقد عشت طوال حياتي هنا، لذا اعتدت عليها».

ودومينيك اعتاد عليها أيضاً، لكن المدينة لم تفقد بالنسبة إليه جمالها ولا سحرها...

قال دايفيد بعد لحظة: «يعجبني هنا شيء واحد، وهو المطاعم الفخمة، وأفكر الآن في تناول العشاء في مطعم «فرعون الثاني» وهو من أفضلها».

بعد نزولهما من القارب، سارا قليلاً ثم استدارا باتجاه طريق ضيّق.

كانا في منتصف الطريق عندما شاهدا رجلاً يتقدم نحوهما. وقف الرجل قليلاً ليشعل سيجارة، فأنار وهج عود الثقاب وجهاً نحيلاً أسمر معقوف الأنف.

قبض دايفيد على ذراعها بشدّة، ودار على عقبيه ثم عاد من حيث أتى.

شعرت نيكولا بالتوجّس والشؤم من هذه الحادثة الصغيرة. ولكنها

ردّت الأمر إلى مخيّلتها النشيطة، فلعله أخطأ في الطريق وحسب.

نظرة سريعة إلى وجهه أثبتت ظنّها بوجود خطب ما، وابتدأت تقول: «دايفيد..».

فقال يطمئنها: «لا بأس، ما من مشكلة. إنه فقط شخص لا أريد أن ألقاه».

وبالرغم من محاولته نبذ الأمر من ذهنه، إلا أنها شعرت بانزعاجه، لكنّها لم تقل شيئاً آخر، مذكّرة نفسها بأن هذا ليس من شأنها.

كان مطعم «فرعون الثاني» فخماً وعصرياً، وديكوره المصري خلاّباً. وقادهما النادل إلى إحدى الموائد الممتازة.

كانت قائمة الطعام من التنوّع بحيث لم تتمكن نيكولا من اختيار أي من الأصناف التي تحتويها. فطلبت من دايفيد أن يختار بنفسه فأجاب بذهن شارد وكأنه مشغول بأشياء أخرى. ومرّت دقائق قبل أن يتمكّن من نبذ ما يزعجه ليمنحها اهتمامه الكامل.

تأمل دايفيد وجهها وهو يقول مفكّراً: «عدا عن أنك رائعة الجمال، لا أعرف عنك شيئاً على الإطلاق. فأخبريني عن نفسك».

سألته بشيء من عدم الارتياح: «ماذا تريد أن تعرف».

- ماذا تشتغلين؟ أو بالأحرى ماذا كنت تعملين قبل أن تصبحي امرأة غنية؟

تجاهلت نيكولا الطريقة المزعجة التي صاغ بها هذا السؤال، وقالت باتزان: «أنا منظمّة مؤتمرات لدى شركة «وست ليك لمعالجة صعوبات العمل»».

- وهكذا تعرّفت إلى جون؟

- نعم.

- هل كنت تعيشين معه؟

- لا، كما لم أقنعه بأن يترك لي أمواله.

- هذا ما فكّرت فيه. أنت لا تبدين كالنساء اللواتي يسعين خلف المال.

بدا صوته مخلصاً. فاغرورقت عيناها فجأة بالدموع، وقالت: «شكراً لك».

- هل كان يحبك؟

- لا. كان جون يحب أمك. كنّا صديقين فقط. كما أننا لم نعرف بعضنا البعض مدة طويلة.

- لماذا إذن ترك لك كلّ ما يملك؟

- لست واثقة. ربما لأنه لم يكن منسجماً مع...

وسكتت فجأة فسألها: «مع بقية الأسرة؟».

ثم أضاف بفضول: «لا أستطيع أن ألومه. لم يتقبله أحد في الأسرة، ما عدا ماما. ولا بد أنه كان يعرف هذا. اعتقد أن تركه الخاتم «لك» هو من باب الانتقام».

إذن، كان دايفيد يسترق السمع.

- من باب الفضول فقط، هل قرّرت إن كنت ستعيدينه إلى دومينيك أم لا؟

قالت وهي تنفجر بعنف: «لم أفكّر بالأمر بعد... كم أتمنى لو أنه لا يساوي كل هذا الثمن».

فسألها بفضول: «إذن، فأنت حقاً لم تكوني تعرفين قيمته؟»

- طبعاً لم أكن أعلم. ما كنت لأحضره معي وأنا أجول البلاد لو عرفت قيمته.

- إذا كان معك، فلماذا لم يجده المخبر الذي أرسله دومينيك ليفتش أمتعتك، كما فهمت؟

- وضعته في حقيبة يدي.

أطلق دايفيد صفيراً طويلاً خافتاً: «إذن كنت تحملينه معك في تنقلاتك؟ من حسن الحظ أن أخي لم يعلم بذلك، وإلاّ لأصيب بنوبة قلبية...».

ونظر إلى حقيبة نيكولا ورفع حاجبيه: «أظنّك لم تعودي تنقلينه معك في...؟»

فقالت بسرعة: «لا. فقد تركته في غرفتي».

ـ هل خبأته بشكل آمن؟

ـ وضعته في صندوق مجوهرات أمي.

أومأ قبل أن يقول بنوع من الاستحسان: «لا بد لي من القول إن دومينيك لم يحصل على ما يريد مؤخراً. ماذا لو أصبح محروماً من الخاتم و«كا- مالفازيا»...؟»

ـ ولا تنسَ المال.

وفشلت في إخفاء مرارتها.

ـ أظن أنّ المال هو أقل اهتماماته، فلديه الكفاية منه. المرأة التي سيتزوجها...

ـ هل سيتزوج؟

حتى في أذنيها بدا صوتها غريباً مصدوماً. فهتف دايفيد: «آه، هل يدهشك ذلك بسبب ما سبق وقلته لك من أنه يحبك؟»

تنفست نيكولا بعمق، ثم قالت بمرح قدر إمكانها: «حسناً، هذا يثبت أنك مخطىء».

ـ لا، أبداً. إلى أن يتزوجا، هو وكارلا، يطلق دومينيك لنفسه العنان، طالما هو كتوم ومتحفظ.

ـ ومتى... ومتى سيتزوجان؟

ـ على حد علمي، لم يحدّدا موعداً لذلك بعد.

سألته، عالمة بأنها تعذب نفسها ولكنّها لم تستطع السكوت: «منذ متى يعرفان بعضهما البعض؟»

ـ عملياً، طوال حياتهما. رغم أن كارلا أصغر منه بكثير... إنها في مثل سنّي تقريباً. هما مخطوبان رسمياً منذ أكثر من سنة. لكن دومينيك، لسبب ما، ورغم اعترافه بأن الوقت حان لكي يستقر وينجب وريثاً، يتمهل في الزواج. لا أستطيع أن أفهم السبب. لو كنت مكانه لما فعلت ذلك، لأن كارلا فتاة رائعة الجمال وأسرتها، فربّني، من أغنى الأسر في فينيسيا. هناك

إيضاً فرع للأسرة في نيويورك، والمال لا ينقصهم... فإذا أنت قرّرت إعادة الخاتم إلى دومينيك، أتوقع أن يدفعه ذلك إلى..».

فقالت وقلبها بثقل الرصاص: «لا أدري ماذا أفعل غير ذلك. سأشعر بأنني شريرة إن لم أفعل. ليس بسبب قيمته الكبرى، ولكن أيضاً بسبب تقاليد الأسرة».

فقال بملل: «أعترف بأنني لا أرى فائدة من الاحتفاظ بكل هذه التقاليد الأسرية، رغم حرص دومينيك عليها. يبدو لي دوماً منسجماً مع الماضي. وحيث أن كارلا فتاة عصرية، ربما لا تهتم مقدار ذرة بالخاتم. ولكن استعادة «كا- مالفازيا» سيكون تأثيره مختلفاً حتماً».

ـ هل تعني أنهما سيسكنان فيه؟

ـ لا. بل ستسكن فيه والدة كارلا. سنيورا فريني ترمّلت حديثاً، وتريد أن تبيع منزل أسرة فريني، لكي تبقى بجانب ابنتها الوحيدة. اقترح دومينيك أن تعيش معها في القصر. لكنها تريد أن تحافظ على استقلاليتها. فإذا استطاعت الحصول على «كا- مالفازيا» سيكون الأمر مثالياً.

قالت نيكولا وقد ازداد يأسها: «لا عجب في أنه متلهّف للحصول عليه».

ـ حسناً، برأيي ستكونين حمقاء إذا تركته يأخذه.

ثم قال وكأنه أحس بشعورها بالاكتئاب: «لكن دعينا ننسى دومينيك... ما رأيك في الرقص؟»

فقالت ببشاشة قدر إمكانها: «لا أستطيع. أصبت بالتواء في كاحلي أمس، وقد عاد الألم مرّة أخرى».

ـ وهذا يعني أيضاً أنك لا تستطيعين السير.

ـ حسناً، ليس كثيراً.

ـ في هذه الحالة، أعرف طريقة مثالية لقضاء بقية السهرة. سنذهب إلى نادي «نوف» حيث يمكننا أن نستمتع بالتفرج على البرامج الترفيهية. لكن إيّاك أن تذكري هذا لدومينيك.

بعد أن عبرا شبكة من الطرق المائية، نزلا بجانب درجات تلطمها المياه برفق، أدّت بهما إلى زقاق ضيّق تحيط به جدران عالية.

انتهى الزقاق إلى ساحة فسيحة نوعاً ما تنتشر حولها حانات ومطاعم في الهواء الطلق، تعطي فكرة عن الحياة الليلية في فينيسيا.

وإلى يمين «الساحة» يقع مطعم فيه عدد كبير من الزبائن يجلسون إلى موائد تحت مظلات مخططة. إلى جانب المطعم، رأت باباً أسود، له فتحة مغطاة بشبكة حديدية. ولم يكن فوق الباب اسم يدل على أنه نادٍ.

ضغط دايفيد زر جرس قديم الطراز وسرعان ما بدا وجه من الفتحة. وبعد تأمل قصير صامت، فتح الباب رجل ضخم، قوي البنية، في ملابس السهرة.

مال دايفيد نحوه وقال شيئاً لم تسمعه نيكولا. فسأله الرجل: «وماذا بالنسبة إليها؟».

- إنها السنيورا ويتني. لا بأس أنا أكفلها.

أومأ الرجل، وأشار بالدخول ثم أغلق الباب.

وجدت نيكولا نفسها واقفة في ردهة واسعة، يتوسطها سلم رخامي يؤدّي إلى الطابق الأعلى، وعندما توارى الرجل خلف ستارة، قال دايفيد: «من هذا الطريق».

عند قمة السلم، فرع دايفيد باباً، ومن دون كلام انفتح الباب وأدخلا إلى غرفة فسيحة ذات ديكور مترف ومزخرف باللونين العاجي والذهبي.

ظهرت مضيفة أنيقة قادتهما باسمة إلى مائدة خالية.

نظرت نيكولا حولها بفضول، فرأت أن بعض الزبائن يرتدون ملابس السهرة بعكس البعض الآخر... ولكن شيئاً واحداً يجمع بينهم جميعاً... المال.

مال دايفيد نحوها وهمس في أذنها: «توقيتنا جيد. العرض على وشك

أن يبدأ».

جلسا يرتشفان العصير وينظران إلى العرض الذي كان جيداً للغاية.

بعد حين، قالت تستحثّه: «هل يمكننا أن نذهب فقد تأخرنا كثيراً؟».

فقال بعنف: «لا تفسدي هذه الجلسة!».

- هيّا، يا دايفيد! لقد تأخرنا كثيراً.

فنهض دايفيد عابساً، وخرجا من النادي بصمت كئيب.

في الخارج بدا المكان مظلماً. كانت المطاعم والحانات مقفلة وقد وضعت الكراسي فوق بعضها البعض تحت المظلات.

بعد أن اجتازا الساحة وأوشكا أن يصلا إلى الزقاق المعتم، خرج رجلان وسدّا عليهما الطريق. كان الاثنان قويين ضخمي العضلات لكن أحدهما بدا أطول من الآخر.

- قبل أن تذهبا، نريد التحدّث معك قليلاً، دايفيد.

لم تستطع نيكولا أن ترى وجهيهما بوضوح بسبب العتمة، لكن الوعيد في سلوكهما جمّد الدم في عروقها.

- ألا يمكن إرجاء ذلك إلى وقت آخر؟ معي سيدة كما ترياني.

قال دايفيد هذا متظاهراً بالشجاعة وكاد ينجح تقريباً. إلا أن الرجل الطويل عاد ليقول: «أنا واثق من أنّها لن تمانع الانتظار دقيقتين فقط».

وأحاط الرجلان بدايفيد ثم دفعاه بخشونة نحو آخر الزقاق. فكّرت نيكولا بيأس في أنها ستصرخ إذا حاولا إلحاق الأذى به. لكن كلّ ما استطاعت سماعه هو تمتمة أصوات وبعض الجمل غير المترابطة.

- بقدر ما أستطيع من سرعة...

- أنجيلو غير مسرور...

- ... أدفع... هذا وعد...

- غداً. قبل الساعة الثالثة.

- سأحاول، لكنني...

- عليك أن تفعل ما هو أفضل من المحاولة. لقد فرغ صبر أنجيلو.

وبدا أنّهم عائدون، وسمعت نيكولا كلامهما بوضوح: «تذكّر ما حدث لآخر رجل جعل صبر أنجيلو ينفد».

فقال دايفيد بصوت خائف: «وما فائدة ذلك؟»

- إنّه درس للذين يستدينون بينما هم لا يملكون مالاً للسداد.

فقال بيأس: «لكن أنا لديّ المال وأنجيلو يعلم هذا. المسألة فقط أنني لا أستطيع الحصول عليه حالياً».

- إذن، عليك أن تجد طريقة أخرى للدفع... وغداً قبل الساعة الثالثة.

خرج الرجلان من الزقاق وتواريا في الظلام تاركين دايفيد واقفاً بمفرده.

واختلط ارتياحها بقلق بالغ. لم يكن هناك شك في أنه غارق في المشاكل حتى عنقه.

وعندما اقتربت منه قال بمرح أعجبت به بالرغم عنها: «آسف لذلك. إنهما مجرد صديقين مندفعين قليلاً».

كلمة (صديقان) هي آخر ما يمكنها أن تصفهما به، كما أخذت نيكولا تفكّر. لكن بدا خوفه منهما، أقل بكثير من خوفه من ذلك الرجل الذي سبق وتجنبه.

ما أن وصلا إلى آخر الزقاق، حتى تنهّد دايفيد بارتياح بعد أن وجد قارب جورجيو ينتظر بالقرب من الدرجات.

ساعدها على الجلوس في القارب من دون أن يتبادلا كلمة. وبعد دقيقة كانا يشقان طريقهما في الظلام.

اقتربا من القصر بنفس الصمت الذي غادراه فيه. وعند رسوّ القارب، أخذ دايفيد يتهامس مع صاحبه قبل أن يناوله أجرته.

ثم همس في أذن نيكولا بصوت خافت: «سأدخل أنا أولاً لأتأكد من أن الطريق خالٍ. وتفادياً لأيّ مشكلة، اتبعيني بعد عشر دقائق. وسيخبرك جورجيو عن الوقت المناسب. تأكدي من وضع المزلاج خلف الباب بعد

دخولك، واستعملي السلم الخلفي كما فعلت سابقاً».

وشدّ على يدها بسرعة ثم أضاف: «بشيء من الحظ، سنصل إلى البيت بسلام».

جلست نيكولا في الظلام تعدّ الثواني بينما الهواء يعبث بشعرها، وبدت لها العشر دقائق كأنها دهر.

أدار جورجيو رأسه أخيراً وأومأ إليها، فهمست: «شكراً».

وسمحت له أن يساعدها على النزول. وقبل أن تدخل إلى البيت، كان هو قد ابتعد.

أغلقت الباب خلفها بهدوء، وجاهدت كي تضع المزلاج في مكانه. وقفت لحظة وقلبها يخفق بعنف ثم استجمعت شجاعتها وصعدت السلّم المعتم وسارت في الممر على أطراف أصابعها. بدا لها المكان ساكناً، لكنّها حبست أنفاسها إلى أن وصلت إلى غرفتها فتسلّلت إليها.

كانت تحاول إغلاق الباب الثقيل بهدوء، لكنها أخطأت، في الظلام، تقدير المسافة فانصفق.

وعندما وقفت متجمّدة مكانها، انفتح الباب الموصل بين الغرفتين فتدفق الضوء منه وبدا دومينيك واقفاً وهو مازال يرتدي بذلة السهرة. ومع أن شعره الأسود كان مشعثاً، إلا أنّ نيكولا أحست بأنه لم يذهب إلى سريره بعد.

- أين كنت؟

كان يدير ظهره للضوء فلم تستطع رؤية وجهه بوضوح. لكن لم يكن لديها أدنى شك في أنّه ثائر الغضب.

- في الخارج.

ورغم كل جهودها ارتجف صوتها قليلاً.

نظر إلى ثوبها وشعرها المشعّث، وقال: «هذا واضح. ومن الواضح أيضاً أنك عدت لتوك».

- نعم.

ـ أدخلي إلى هنا. أريد أن أتحدث إليك.

ـ أرجوك يا دومينيك. ألا يمكن تأجيل هذا حتى الصباح؟

ـ لا. لا يمكن.

فقالت متوسّلة، متلهّفة إلى إرجاء المواجهة: «لكنّني متعبة وكاحلي يؤلمني».

فقال عابساً: «أصدّق هذا تماماً، ولكن عليك أن تقدّمي بعض الإيضاحات، وأنا لا أنوي أن أستمع إلى كلامك من الغرفة الثانية، فتعالي إلى هنا إذاً».

أدركت نيكولا أنها إذا لم تمتثل لما يقوله فسوف يأتي ويحملها عبر الغرفة. وهكذا وضعت حقيبتها على كرسي وتقدمت نحوه، فتنحّى جانباً لكي يدعها تمرّ.

رأت وجهه العابس وتملكها الذعر فجأة من غضبه، فتردّدت. لكنّه أمسك بمعصمها وجذبها إلى الداخل ثم أغلق الباب خلفها.

ومع أنّها تسللت إلى غرفته في الليلة السابقة، لكنها لم تلاحظ شيئاً فيها سواه. بدت الغرفة كبيرة فخمة، ورغم شعور نيكولا بالاضطراب، صُعقت لبساطة جدرانها البيضاء وأثاثها العادي. الشيء الوحيد الذي يدل على ثراء دومينيك وسلطته هو السرير الرائع بأعمدته الأربعة التي ينتهي كلّ منها بكلّة قرمزية اللون تضفي عليه الفخامة والجمال.

ـ اجلسي.

ـ بل أفضّل الوقوف.

ـ هل لك أن تكفّي عن التصرف كحمقاء عنيدة وتمتثلي لما أقول؟

لم يرفع صوته إلاّ أن كلامه لسعها كالسوط، فجلست على أقرب كرسي.

قال لها وهو مازال واقفاً: «حالما رتبت أمر إرسال شخص آخر إلى الاجتماع بدلاً من دايفيد، عدت لكي آخذك إلى «مورينو» وإذا بي أجدك قد اختفيت».

فقالت متلعثمة: «أنا... أنا آسفة، لكنّك لم تقل إنّك ستعود، فظنّ دايفيد..».

وسكتت فجأة وقد أدركت أن من غير الحكمة إشراك دايفيد في الأمر.

ـ ما الذي ظنّه دايفيد؟

فأجابت بحذر: «قال فقط إنّك عندما تكون في العمل فمن غير المحتمل أن تعود باكراً. وهكذا قرّرت، بدلاً من أن أجلس هناك، أن أخرج لفترة قصيرة..».

ـ لكنها لم تكن فترة قصيرة. عندما جاء وقت العشاء من دون أن يبدو لك أثر ظننت أنّك...

مع أنه لم يكمل جملته، علمت نيكولا بالضبط ما يوشك أن يقول. فقالت: «رحلت؟ تركت فينيسيا نهائياً؟»

فاعترف قائلاً: «هذا ما مرّ ببالي».

ومع أن كلماته بدت بسيطة عفوية، إلاّ أنّها تأكدت فجأة من أنه خائف حقاً من أن ترحل، وأن هذا أمر يهمّه حقاً.

وانتعش قلبها لحظة، قبل أن يتملّكها ألم مفاجيء، حين أدركت أنها ليست هي التي تهمه، إنّما الخاتم الذي بحوزتها.

تنهّدت، ثم سألته: «وكيف عرفت إذن أنني لم أرحل نهائياً؟»

ـ صعدت إلى غرفتك واكتشفت أن حوائجك مازالت هناك. طمأنني ذلك لفترة، لكن عندما لم تعودي، شعرت بقلق حقيقي عليك.

ـ حسناً، آسفة لأنني سببت لك القلق. لكنك قلت إنه سجن مفتوح لذا لم أجد ضرراً في أن أخرج لأتفرج على المدينة.

ـ تتفرجين على المدينة؟ هل لديك فكرة عن الوقت الآن؟

ـ حسناً، أنا أعرف أن الوقت متأخر، ولكن...

ـ الساعة الآن الثانية والنصف. وكان يمكن أن يحدث لك أي مكروه.

وبلهجة من الغضب الهادىء: «ما هذه الحماقة التي جعلتك تتسكعين في أنحاء فينيسيا وحدك حتى ساعات الصباح الأولى؟»

ـ لكنني لم أكن...

طبيعتها الصادقة جعلتها تفشل في الكذب، وأدركت أنّها كادت تفضح دايفيد، فسكتت فجأة وهي تشعر بالاضطراب. فضاقت عينا دومينيك: «لم تكوني وحدك؟».

ـ أردت أن أقول إنّي لم أكن أتسكع، بل أمضيت معظم الأوقات جالسة بسبب كاحلي الذي يؤلمني.

ـ أين كنت «جالسة» حتى الثانية والنصف صباحاً؟

ـ لا أتذكر أسماء الأماكن.

وأضافت آملة ألاّ تكون قد كشفت أموراً كثيرة: «تناولت شراباً ثم جلست أتفرج على برنامج ترفيهي».

غيّر دومينيك الموضوع فجأة: «كيف خرجت من القصر ودخلت إليه؟».

ـ أنا... لا أعرف ما تعنيه.

ـ إنّه سؤال سهل.

عندما لم تعرف ما تقول، بقيت صامتة، فسألها: «هل خرجت وعدت من المدخل الرئيسي؟».

وإذ تكهنت بأن المدخل الرئيسي يقفل قبل أن يذهب الخدم إلى النوم، تلعثمت وهي تقول: «حسناً... لا».

ـ أي مدخل استعملت إذن؟

ـ خرجت وعدت بالقارب.

ـ فهمت. ولكن ليس من الطريق الذي أخذتك منه الليلة الماضية.

لم يكن هذا سؤالاً. وخوفاً من أن يزّل لسانها لاذت بالصمت.

ـ إذن من الذي أخبرك عن مدخل البائعين؟

وقعت في الفخ، فصاحت: «أرفض الجواب على أي سؤال آخر. بصفتي ضيفة هنا، لديّ الحق في أن أخرج وأعود متى شئت بدون استنطاق».

فرفع حاجبيه: «استنطاق».

ـ ماذا تسمي هذا إذاً؟

ـ لو أنّك أخبرتني الحقيقة منذ البداية...؟

ـ لكنني أخبرتك..

ـ أنا مسرور لأنك أخبرتني الحقيقة عما أردت معرفته، لكنني لست أحمق. فأنا أعلم أنّك كنت في الخارج مع دايفيد.

ثم أدهشها بقوله: «من خلال وصفك لزوجك، تصوّرت أن دايفيد يشبهه كثيراً».

فقالت معترفة: «نعم».

ـ حسناً، إعلمي أن دايفيد، بخلاف زوجك، رجل عابث يحطم القلوب.

ـ يا لشهامتك في تحذيري منه.

ـ وهكذا، إلى أين أخذك؟

جاءها هذا السؤال مفاجئاً وكأنه فخ، فردّت: «قلت لك إنني لا أريد أن أجيب عن أيّ سؤال آخر».

ـ في الواقع، أنت لست بحاجة إلى ذلك، فبإمكاني أن أخمّن. أعلم تماماً أن دايفيد يستأجر غرفة في «الليدو». كما أن شعرك المسترسل ينبىء بأنك إما كنت تسبحين، وإما منغمسة في... هل أقول إجراء «تمرينات بين الجدران»؟

رأى الاضطراب في عينيها والاحمرار على وجنتيها، فقال بلهجة حاسمة: «يبدو أن تخميني صحيح. وهكذا، أي شكل اتخذته تمريناتك تلك؟»

ـ بما أن هذا ليس من شأنك، ليس في نيّتي أن أخبرك.

ـ أظنّني لست بحاجة إلى أن أسأل. دايفيد بارع جداً في إغواء النساء.

فردّت بحدّة: «على الأقل دايفيد ليس خاطباً..».

شعرت بالندم على الفور، ما أن تلفظت بهذه الكلمات.

ضاقت عيناه الرماديتان، وسألها: «ماذا أخبرك بالضبط؟».

حاولت أن تبدو غير مهتمة بالأمر، فقالت: «فقط إنك ستتزوج».

ثم شعرت بالألم والمرارة يفيضان منها: «يمكنني الآن أن أفهم لماذا تريد أن تستعيد الخاتم والمنزل».

اغرورقت عيناها بالدموع فهبّت واقفة واتجهت إلى غرفتها لكن دومينيك سدّ عليها الطريق: «لا تسرعي بالخروج».

أحنت رأسها وهي تغالب دموعها: «دعني أذهب أرجوك».

- ليس قبل أن تخبريني ما حصل بينك وبين دايفيد.

رفعت رأسها والدموع تنهمر على وجنتيها، وصرخت به ثائرة: «ولماذا تزعج نفسك بسؤالي؟ فمهما قلت لن تصدّقني».

- جربيني.

- طبعاً استسلمت لإغرائه! ومادمت تعلم أي نوع من النساء أنا، فماذا كنت تتوقع غير ذلك؟

- لكنّني لا أعلم. ومازلت أحاول أن أعرف.

- ولماذا يهمّك هذا مادمت ستستعيد كل ما تعتبره ملكاً لك؟

وأخذت تشهق باكية وهي تحاول أن تفتح الباب. وعندما تحرك نحوها ظنّت أنه يريد أن يفتح لها الباب لتخرج، لكنه، بدلاً من ذلك، أخذها بين ذراعيه.

حاولت أن تخلّص نفسها لكن من دون جدوى. وبعد دقائق تخلّت عن كل مقاومة، ودفنت وجهها في صدره وأخذت تبكي من أعماق قلبها بينما راح يشدّها إليه ويمرّر يده على شعرها.

قال برقّة: «لا تكدّري نفسك. كل شيء سيكون على ما يرام. أعدك بذلك..».

لكنه سيتزوج فتاة اسمها كارلا ولن يصبح أي شيء على ما يرام مرة أخرى.

- والآن هذا يكفي. توقفي عن البكاء!

كافحت للسيطرة على نفسها، ثم تراجعت قليلاً وقالت بحزن: «آسفة»

- ليس هناك ما يستوجب الأسف.

رفع دومينيك وجهها وأخذ يمسح دموعها بإبهامه. فدمّرتها تلك اللمسة من الحنان وتدفّقت دموعها من جديد تنساب على خديها.

شدّها إليه مرة أخرى وهو يهمس: «يا حبيبتي».

شعرت بالحنين إليه وبرغبة كادت تقضي على دفاعاتها، إلا أنها استجمعت شجاعتها وتوقفت عن البكاء مبعدة رأسها عن صدره.

وكأنما شعر دومينيك بحاجتها إلى الراحة والابتعاد عنه، ففتح الباب بهدوء وقادها إلى غرفتها: «لا بأس، ارتاحي الآن وستتحدث في ما بعد».

ثم عاد إلى غرفته مغلقاً الباب وراءه.

ما أن أصبحت نيكولا في غرفتها حتى راحت تشهق بالبكاء بصمت لئلا يسمعها. بدلت ثيابها بسرعة واندست تحت الأغطية في سريرها. أحست فجأة بالإرهاق والتعب، فقرّرت أن تبعد عن ذهنها كل الأفكار التعيسة لتخلد إلى النوم.

* * *

عندما فتحت عينيها شعرت بالفراغ يملأ رأسها للحظة. لكن هذا الفراغ ما لبث إن امتلأ بصورة دومينيك وصوته. لقد دعاها حبيبتي...

وتساءلت لما يفعل هذا، ولديه خطيبة يخطط للزواج بها!

صدرت عنها آهة عذاب ويأس. فقد سمحت لنفسها بأن تبكي على صدره وسمحت له بضمها بين ذراعيه. ألا تتعلم أبداً؟

إنّها غارقة بحبه، بينما هو لا يهتم بها على الإطلاق. إنه يحاول التلاعب بها بينما يخطط للزواج من المرأة الأخرى.

لا، ليس إنصافاً أبداً. فهي تصوّر الأمر وكأنه يستغلها، في حين أنه يفيض أحياناً بالحنان وقد منحها أكثر مما طلب منها بكثير.

ومع ذلك لم يكن هناك أمل في أن يحبها دومينيك. فاهتمامه ينصبّ على استعادة الخاتم الذي يجلب الحظ والمنزل لكي يسهّل زواجه.

معرفتها بذلك وتقبّلها للأمر، يجعل من إقامتها هنا مجرد تعذيب لنفسها. كلما أسرعت في العودة إلى وطنها كلما كان ذلك أفضل. لكنها أولاً، ستذهب لرؤية السنيور مانسيني ليساعدها في اتخاذ الخطوات اللازمة لإعادة ما ترى الآن أن جون ما كان عليه أن يتركه لها أبداً منذ البداية. وبعد ذلك يمكنها أن تترك فينيسيا بضمير مرتاح.

* * *

١٠ ـ رجل غير عادي

بعد أن وصلت إلى هذا القرار، ورغم أن قلبها كان يعتصر من الألم لأنها لن ترى دومينيك مرة أخرى إلاّ أنّها شعرت بشيء من راحة الذهن.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً. وإذا أمكنها الحصول على موعد مع المحامي هذا الصباح فستغادر فينيسيا بعد الظهر.

نزلت من السرير، فاكتشفت أن الراحة أفادت كاحلها كثيراً. كان رقم تليفون المحامي في حقيبة يدها، فاتصلت بمكتبه. أبلغتها السكرتيرة أنه سيحاول أن يراها إذا ذهبت إليه على الفور.

وبينما هي تغتسل وترتدي ثيابها بأسرع ما يمكن، راح ذهنها يراجع الأحداث التي مرّت بها الليلة الماضية.

شعرت بالعار حين تذكرت كيف كذبت على دومينيك وأخبرته أن دايفيد أغواها. والآن، ها هي تندم على غبائها بمرارة، وتمنّت، من أجل مصلحة دايفيد، لو أنها أنكرت حتى مرافقتها له. لأنه إذا وقع في مشكلة خطيرة فستكون هي المسؤولة.

حالما أصبحت مستعدة، نزلت إلى الطابق الأسفل وهي ترتجف من الخوف. آخر ما تريده هو أن تصادف دومينيك، وتمنت أن يكون في العمل في مثل هذا الوقت من النهار.

تملّكها الارتياح عندما خرجت من الباب وأغلقته خلفها من دون أن تصادف أحداً.

قطعت نيكولا المسافة القصيرة لتصل إلى القناة الكبيرة، وتوجهت إلى

www.elromancia.com

مكتب السنيور مانسيني.

كان السائق بشوشاً وثرثاراً، فقالت له إنها لن تتأخر سوى دقائق معدودات، وطلبت منه أن ينتظرها.

استقبلها السنيور مانسيني، عند الباب بيد ممدودة لمصافحتها ثم رافقها إلى مكتبه وهو يكرر كلمات الترحيب.

حيّته بالإيطالية ببرودة. وحالما جلست سألها: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

ومن دون تردّد، أخبرته ما قرّرت القيام به.

قال مجفلاً: «كلّ شيء؟»

فقالت بحزم: «كل شيء».

- طبعاً، إذا كانت هذه مشيئتك..؟

- نعم، إنها كذلك.

- حسناً! سأتخذ الخطوات الضرورية لذلك. هل ستبقين في فينيسيا؟

- لا. أنا راحلة بعد ظهر اليوم.

- أين يمكنني الاتصال بك؟

- لست واثقة، سأخبرك في ما بعد.

عندما عادت إلى القصر، توجّهت إلى مدخل البائعين، ثم طلبت من السائق أن ينتظرها. مرة أخرى خدمها الحظ فلم تصادف أحداً في طريقها. وفي غرفتها وضعت حقائبها على السرير وأخذت تحزم أمتعتها.

كانت نيكولا على وشك وضع صندوق مجوهرات أمها في حقيبة أكبر، عندما تذكرت الخاتم الذي يجلب الحظ، ففكّرت في أن تتركه لدومينيك مع ورقة تخبره فيها بما فعلت وتتمنّى له حظاً سعيداً.

فتحت الصندوق وأخرجت كيس الشامواه وإذا بها تجده خالياً. فتشت بسرعة بين المجوهرات الأخرى في الصندوق، لكن من دون جدوى.

أدركت، والمرارة تتملكها، أن دومينيك أخذه، إما الليلة الماضية حين جاء إلى غرفتها ليرى إن كانت أمتعتها موجودة، وإما هذا الصباح بعد أن

غادرت المنزل.

لكن هل تلومه وهي تدرك كم يعني هذا الخاتم بالنسبة إليه؟ ربما تصرّفت مثله لو كانت مكانه.

ومع ذلك، علمت في قرارة نفسها أنها ما كانت لتفعل هذا. وتملّكها شعور بالغ بالإحباط وخيبة الأمل. فاستيلاء دومينيك على الخاتم بكل بساطة من وراء ظهرها، قلّل من إحترامها له، فهذا ليس تصرف رجل شريف.

كانت تحزم بقية أمتعتها بيدين مرتجفتين، عندما قرع الباب فقفزت مجفلة. وقفت من دون حراك حابسة أنفاسها، راجية ألاّ يكون هذا دومينيك.

وجاءها صوت دايفيد: «نيكولا... هل أنت هنا؟ إذا كنت موجودة فافتحي الباب بحق الله».

أسرعت تفتح له الباب وإذا بها ترى دايفيد شاحب الوجه يتصبّب عرقاً، فصدمها ذلك: «ما الذي حدث...؟»

فقال بلهفة: «اسمعي... أريدك أن تسديني خدمة..».

- أليس من الأفضل أن تدخل وتجلس أولاً؟

- لا وقت لديّ. عليّ أن أعود. فقد شخّص الطبيب أني مصاب بالتهاب حاد في الزائدة الدودية. وستأتي سيارة الإسعاف في أي دقيقة لتأخذني إلى المستشفى وأنا بحاجة بالغة إلى عونك.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

فقال وهو يكبت آهة: «أريدك أن تذهبي إلى نادي «نوف» حالاً. اقرعي الجرس إلى أن يأتي أحدهم وأطلبي بإلحاح أن تتكلمي مع أنجيلو شخصياً..».

ودسّ في يدها مغلفاً صغيراً سميكاً، وتابع يقول: «أعطِه هذه الرسالة وأخبريه بأنني أرسلتك..».

- آه، لكنني على وشك...

- صدقيني، ما كنت لأطلب منك هذا لو لم أكن بغاية القنوط. لكن أنجيلو لن يضيّع وقتاً. إذا لم يسمع مني خبراً قبل الساعة الثالثة فسيرسل رجاله في أثري وينتهي بي الأمر في براد المستشفى بدلاً من غرفة الانعاش. أرجوك يا نيكولا... أنت أملي الوحيد.

فقالت وهي ترى قنوطه البالغ: «لا بأس. سأفعل ما تريد».

أوماً وهو ينحني بألم فظيع ويعضّ شفته، ثم راح يسير ببطء في الممر عائداً من حيث أتى.

أخذت نيكولا تنظر إليه حتى وصل إلى نهاية الممر، خوفاً عليه من السقوط، ثم دسّت المغلف في حقيبتها وأسرعت تهبط السلم الخلفي. عندما ساعدها السائق على النزول إلى القارب أخبرته عن وجهتها.

وعدت نيكولا نفسها بأن تتصل بالمستشفى وتطمئن على دايفيد، حالما تبتعد عن فينيسيا بسلام.

عندما وصلا إلى الزقاق المطلوب، أعطت السائق أجرته مع هبة جيدة وقالت: «هلاّ انتظرتني مرة أخرى، فلن أتأخر. سأعود بعدئذٍ، إلى القصر لأحضر أمتعتي ثم تأخذني إلى «ساحة روما»».

- بكل تأكيد يا سنيورا.

كان المطعم القريب ما يزال مزدحماً بزبائن الغداء عندما اقتربت من النادي وقرعت جرس الباب.

في الداخل، بدا كل شيء هادئاً. وبعد لحظات، قرعت الجرس مرة أخرى ولكن من دون فائدة. ماذا ستفعل إذا لم يفتح لها أحد؟ إذا فشلت في توصيل الرسالة قبل الثالثة بعد الظهر فستتعرض حياة دايفيد للخطر. أم أنه كان يبالغ؟

تذكرت الرجلين اللذين أمسكا به الليلة الماضية، وأدركت أنها لا يمكن أن تجازف بعدم توصيل الرسالة.

وقرعت الجرس للمرة الثالثة. وبعد ثوانٍ، أطل من الفتحة رجل خشن الملامح، وهو الرجل نفسه الذي أدخلهما الليلة الماضية. وقالت بثبات:

«أريد أن أتحدث إلى أنجيلو».

فقال بضيق: «إنه ينام بعد الظهر».

- يجب أن أتحدث إليه. إسمي نيكولا ويتني. ولدي رسالة هامة له.

تأملها بحذر، فظنّت أنه سيرفض السماح لها بالدخول. فأصرت تقول: «رسالة هامة جداً».

فزمجر يقول: «حسناً جداً، لكنه لا يحب أن يزعجه أحد».

وفتح باباً إلى اليسار وأشعل النور ثم أشار إليها بالدخول إلى مكتب صغير من دون نوافذ.

صمّمت نيكولا على أن تبقى هادئة. أخرجت المغلف من حقيبتها وهي تنظر حولها. رأت خزائن عدة، ومكتباً تسوده الفوضى وكرسياً من الجلد، وسلة مهملات مليئة بالأوراق، وخزنة ضخمة.

لم يكن في الغرفة أيّ نوافذ ما جعلها تشعر بالخوف. ومع مرور الثواني اشتدت يداها على المغلف شاعرة بتوتّر في أعصابها.

بدا المغلف سميكاً أكثر مما يلزم لرسالة... وفجأة تملّكتها الشكوك...

تذكّرت ذلك المشهد القصير في الزقاق... وقول دايفيد (لكنني لا أملك نقوداً، ولا يمكنني أن أحصل عليها حالياً).

ماذا لو أنّ دايفيد هو الذي أخذ الخاتم؟

لا، لا... لا يمكنها أن تصدّق أنه يأخذ خاتماً لا يقدّر بثمن لكي يدفع ديونه...

أم أنه فعل ذلك؟ بدا بالغ القنوط واليأس، وبعد حديثهما في المطعم، عرف بالضبط أين يجد الخاتم.

هل يمكنها أن تحمل نفسها على النظر داخل المغلف لتتأكد؟

إذا لم تفعل فسيخسر دومينيك أثمن ما يعتز به وسيكون ذلك بسببها هي.

وبعزم مفاجيء، مزقت المغلف، وإذا بها تجد الخاتم ومعه ورقة بيضاء

سميكة مكتوبة بسرعة.

أخذت تنظر برعب. انتبهت لوقع خطوات قادمة، ثم سمعت صوت المفتاح في القفل.

إذا لم يكن أنجيلو على علم بما أرسله دايفيد، فقد تتمكن من الإنكار.

أخذ ذهنها يعمل كالبرق، فدست المغلف قرب سلة المهملات لتخفيه ثم انتصبت واقفة مع انفتاح الباب.

كان القادم رجلاً متوسط الطول، ذا وجه نحيل وأنف معكوف. إنّه، من دون شك، ذلك الرجل الذي حرص دايفيد على أن يتجنبه. وعلى الفور أدركت نيكولا السبب.

ورغم أن أنجيلو يبدو نحيلاً، إلاّ أنّ فيه شيئاً كريهاً منفراً وقسوة أرسلت رجفة في جسدها.

قوّمها بعينين سوداوين لامعتين، ثم قال بأدب: «مساء الخير».

ـ مساء الخير سنيور.

ـ هل أنت السنيوريتا ويتني؟

فقالت بحزم: «سنيورا».

ـ لديك رسالة لي؟

ـ نعم، من دايفيد لوريدان. لم يستطع القدوم بنفسه لأنه أدخل إلى المستشفى لإجراء عملية الزائدة الدودية.

ـ ظننت أن احترام دايفيد البالغ لي يمنعه من تقديم أعذار واهية.

ـ إنها ليست أعذاراً، يا سنيور.

فضاقت عيناه: «لماذا أرسلك لتخبريني ذلك فقط؟».

وأضاف بنوع من الهزل وهو لا يزال عابساً: «من المؤكد أنه لا يتوقع مني أن أرسل إليه سلة زهور؟».

فقالت بشبه ابتسامة: «خاف إن لم تعرف حقيقة الوضع، أن تتصرف... هل نقول... بسرعة...؟ كل ما يحتاجه هو قليل من الوقت».

ـ إنه يقول ذلك منذ أسابيع.

ـ دايفيد رجل غني، لكنه يواجه مشكلة في الحصول على ماله بسبب شرط في وصية أمه.

فقال بصوت منخفض للغاية: «فهمت أنه وجد طريقة أخرى للدفع».

تجمّد الدم في عروق نيكولا. وعندما لم تجب سألها: «ما هي تلك الطريقة الأخرى؟»

تنفست بعمق، ثم قالت بهدوء: «آسفة لأنني لا أعلم. لقد أخذوا دايفيد فجأة، فلم يتيسّر لنا وقت كافٍ للحديث. ربما أراد أن يطلب العون من أخيه».

ـ علمت أن دومينيك لوريدان مستاء جداً من سلوك أخيه المستهتر، وقد يرفض هذه المرة مساعدته.

هذه المرة؟ إذن كان دومينيك يدفع ديون أخيه في الماضي!

جاهدت لتبدو واثقة، وقالت: «دومينيك ودايفيد أخوان، ويجري في عروقهما الدم نفسه، يا سنيور. وأنا واثقة من أن دومينيك لن يسمح بأن يصيب أخاه أي ضرر».

فقال بنعومة وعيناه تسمّرانها: «رغم أنّك تتكلمين لغتنا بطلاقة وظرف، أنت لست إيطالية كما أتصوّر؟»

ـ لا. أنا إنكليزية.

ـ ما هي علاقتك بهذا؟ من منهما عشيقك؟

فقالت بجفاء: «لا هذا ولا ذاك. أنا مجرد ضيفة في القصر».

ـ يبدو أنك تعلمين الكثير بالنسبة إلى ضيفة.

ـ ما أعلمه هو أنّ آل لوريدان لا يعانون من نقص في المال، والأمر يستحق منك أن تمنح دايفيد بعض الوقت بصورة استثنائية. عندما يخرج من المستشفى، أنا واثقة من أنه سيجد طريقة يدفع بها دينه.

ثم قالت بثقة مصطنعة: «والآن، إذا سمحت، يجب أن أعود. مساء الخير يا سنيور».

هزّ أنجيلو رأسه وقال بابتسامة لا بهجة فيها: «أريدك أن تبقي هنا. وأنا ألحّ على ذلك في الحقيقة. فأنا مقتنع بأن وجودك هنا سيسرع في شفاء... ديفيد»

إذن، فهو لم يصدقها.

ورفع صوته: «إنريكو».

انفتح الباب على الفور، ما يدلّ أن الرجل الضخم الذي أدخلها، كان ينتظر أمام الباب.

ـ سنيورا ويتني ستبقى هنا لفترة. اجعلها مرتاحة تماماً في الغرفة الخلفية. ولكن أولاً...

ومدّ يده، مخاطباً نيكولا بأدب: «هل تسمحين؟»

لم تدرك إلا بعد ثانية أو اثنتين أنّه يطلب حقيبة يدها، فناولته إيّاها بصمت.

وضعها على المكتب وفتشها بسرعة ودقة، وبدا أنه كان ينتظر أن يجد الخاتم. ثم فحص جواز سفرها ورخصة القيادة قبل أن يومىء للرجل الضخم، فأمسك هذا الأخير ذراعها وأخذ يدفعها بقوة إلى الباب. فقال أنجيلو بليونة: «لا حاجة بك لاستعمال القوّة يا انريكو. أنا واثق من أن السنيورا ويتني لن تسبب لنا أيّ مشكلة».

أرادت نيكولا أن تتوسل إليهما لكي يدعاها تخرج، لكنّها أدركت عدم جدوى ذلك. تبعت انريكو إلى حيث هبطا السلم ثم اجتازا الردهة إلى ممر قصير. في آخر الممر، أدت بهما درجتان إلى باب معدني ينفتح على ما يبدو أنّه مخزن.

دفعها الرجل إلى الداخل وصفق الباب خلفها ليقفله بعد لحظة.

شعرت بذعر مفاجىء وبرغبة في الصراخ والضرب على الباب. لكنها فكّرت بأنّ عليها أن تصون حياتها.

وقفت جامدة في مكانها ويداها مشدودتان إلى جانبيها، مغالبة الذعر، ومحدّثة نفسها بحزم بأن أحداً لن يؤذيها، وأنها مجرد رهينة سرعان ما يُفرج

عنها.

عندما هدأت قليلاً، نظرت حولها. كان سجنها صغيراً معتماً ومليئاً بكل أنواع النفايات.

لم يكن فيه نوافذ، ومصدر النور الوحيد هو نافذة صغيرة مغطاة بشبكة حديدية في جدار من الآجرّ.

تساءلت عما إذا كان هناك فرصة للهرب، وهي تنظر حولها علّها تجد شيئاً تقف عليه. ووقع نظرها على كرسي من دون ظهر لها قوائم عالية واهنة، فبدا لها أنها الجواب على دعائها. جرّتها إلى قرب الجدار بقدر ما سمحت لها النفايات، ثم تسلقتها لتفحّص الشبكة. لكنها لم لبثت أن أدركت أن الحديد، رغم الصدأ الكثيف الذي يعلوه، قوي ومتين.

لا مجال للهرب من هذا الطريق. ويبدو أن مصيرها هو البقاء هنا حتى يشفى دايفيد ويفتقدها. إلاّ إذا تمكنت من جذب انتباه شخص ما.

ومالت إلى الأمام لترى الخارج، وإذا بإحدى قوائم الكرسي تنكسر فجأة ما جعلها تسقط على الأرض، فارتطم وجهها بالجدار الخشن لتستقر أخيراً على كومة من الركام بعيدة كل البعد عن النعومة.

مضت عليها دقيقة أو نحوها قبل أن تستجمع قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها. سارت وهي ترتجف نحو البقعة الصغيرة الوحيدة الخالية من الركام، ثم جلست على أحد الصناديق.

شعرت بألم حارق في خدّها، وعندما لمسته شعرت بالدم تحت أصابعها.

حسناً، الذنب ذنبها. كان عليها أن تكون أكثر حذراً. وكالحادث السابق، كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير... أخذ الوقت يمر ببطء. فعادت أفكارها إلى دومينيك ووجدت نفسها تتساءل عمّا عساه يفعل.

أتراه افتقدها؟

بالأمس كان قلقاً عليها، لكنه يشعر الآن بالقلق على أخيه بحيث لن يهتم بها.

رفعت بصرها حين سمعت حركة مفاجئة عند الباب ثم صوت المفتاح

وهو يدور في القفل.

ظهر إنريكو، وبهزّة من رأسه أشار إليها بأن تتبعه، فأطاعته وهي تشعر بالتصلب والألم من الرضوض التي أصابتها.

عندما وصلا إلى المكتب، سمعت أنجيلو يقول: «... مدين لي بمبلغ كبير من المال».

تلاه صوت منخفض جذّاب يجيب: «عندما أطمئن إلى أن السنيورا وينني هنا ولم يصبها ضرر، سأكون مستعداً للتحدث معك في هذا الأمر».

فتح إنريكو الباب ودفعها إلى الأمام. دخلت متعثرة، لتجد أنجيلو عند المكتب، قبالة وجه دومينيك العابس.

تساءلت كيف استطاع أن يجدها بهذه السرعة. وحين رأى دومينيك وجهها المدمّى هتف: «يا إلهي».

أسرعت نيكولا تطمئنه، وهي ترى خطاً أبيض حول فمه: «لا بأس في هذا. إنه مجرد حادث».

وإذ رأته غير مقتنع قالت: «تسلّقت كرسياً عالياً لأرى من خلال نتحة، فانكسرت إحدى قوائمها، وتخدّش وجهي في الجدار...».

ـ ألم يؤذوك بطريقة أخرى؟ لأنهم إذا...

فسارعت تطمئنه: «لا... لا لم يفعلوا شيئاً. أنا بخير».

لكن ارتياحها كان بالغاً برؤية دومينيك إلى حدّ جعلها ترتجف رغم تظاهرها بالجلد.

وضع ذراعه حولها، وقال بصوت هادىء واثق: «سآخذ السنيورا وينني إلى البيت مباشرة، وسأراك صباح غد عند الساعة العاشرة».

نظر أنجيلو إليه وكأنه يزنه، ثم قال محذّراً: «لن ينفعك تغيير رأيك».

فأجابه دومينيك باختصار: «لم أتعوّد تغيير رأيي».

فقالت نيكولا بصوت طبيعي أدهشها: «أريد أن أستعيد حقيبة يدي من نضلك».

فقال أنجيلو برفق وهو يناولها الحقيبة: «طبعاً».

ومن دون كلمة أخرى، رافقها دومينيك إلى الخارج ثم سارا في الزقاق إلى حيث كان زورقه البخاري ينتظر عند الدرجات التي يتلاطم الماء فوقها.

عندئذٍ فقط تذكرت نيكولا كيف جاءت إلى هنا.

ـ جئت في تاكسي وطلبت من السائق أن ينتظرني...

ـ نعم. عندما لم تعودي تصرف الرجل بذكاء فعاد إلى القصر. وشكراً لله لأنني كنت قد عدت لتوّي من المستشفى. وعندما ذكر «كامبو ماندولو»، أدركت أين ذهبت ومن هو المحرّض.

بدا عليه الغضب البالغ ما جعل نيكولا تعضّ شفتها وتلتزم الصمت. وهكذا مرّت بقية رحلة العودة بصمت تام.

عندما وصلا إلى القصر، قادها مباشرة إلى مكتبه، وأجلسها على الأريكة الجلدية: «منذ متى لم تأكلي؟ هل تناولت الغداء؟».

فهزّت رأسها.

ـ سأطلب من ماريا أن تحضر لك شيئاً، وربما بعض الحساء.

فقالت وهي تشعر بالغثيان: «لا أظنني أستطيع تناول الطعام الآن».

ـ حسناً جداً.

ودخل الحمام ليعود بصندوق يحوي إسعافات أولية، ثم انحنى وأخذ ينظف خدها بالمطهّر.

ورغم عبوس وجهه وصلابته، كانت يداه رقيقتين.

أصبحت معالجة إصابتها عادة لديه، كما أخذت تفكّر هازلة، ثم أجفلت عندما مس خدّها بيده صدفة.

توقف وسألها: «هل تشعرين بألم؟».

فتمتمت: «لا، أبداً».

ثم رأت عضلة في فكه تتوتّر.

توقعت منه أن يبدأ باستجوابها، واستعدت نفسياً لذلك. لكنه جلس يحدّق إلى الأرض كأنه لا يرى وقد شحب وجهه وتوتّرت شفتاه.

شعرت بالاحباط لموقفه هذا، ولما مرّ بها خلال هذا النهار المرهق،

ووجدت صعوبة في السيطرة على مشاعرها. شعرت بحاجتها إلى الانفراد بنفسها، فنهضت بشيء من عدم التوازن ثم قالت: «إذا سمحت، أحب أن أستلقي قليلاً..».

رفع بصره فصدمتها الكآبة البادية على وجهه. فقالت متلعثمة: «أنا... أنا آسفة لأني أغضبتك».

- أنا لست غاضباً منك، وإنما من أخي المعتوه ذاك الذي عرّضك للخطر.

هبّ واقفاً. وبعد لحظة كانت بين ذراعيه يحتضنها بشدة. وتحيّرت وهي ترى دومينيك القوي، دومينيك الهادىء، الرابط الجأش... يرتجف.

ضغط خده على شعرها وهمس: «يا إلهي... لو حصل لك مكروه... لا أدري ماذا كنت سأفعل».

وعندما ضغط ذراعيه حولها متشنجاً، صدرت عنها شهقة.

- آسف، هل آلمتك؟

- لا... لا، أنت لم تفعل...

لكنه تراجع، فقالت متلعثمة: «دومينيك، أنا...».

كانت السعادة تغمرها لوجودها بين ذراعيه، لكنها تذكرت كارلا فجأة، فسكتت وقد بدا عليها الاضطراب.

استعاد دومينيك السيطرة على نفسه، وقال بهدوء: «قررت الرحيل من دون أن تخبريني؟ هل بسبب ما حدث الليلة الماضية؟»

- جزئياً.

- ما الذي جعلك تذهبين لرؤية محاميك؟

- كيف عرفت...؟

- اتصل بي قبل أن أغادر البيت للبحث عنك، وأخبرني عما كنت تعتزمينه. أريد أن أعلم السبب.

بقدر ما أمكنها من الهدوء، قالت: «لأنني أدركت أخيراً أن ليس لي الحق في إرث أسرة لوريدان».

- يجب أن أعترف أن ذلك ما فكرت فيه في البداية، لكنني أدركت الآن أنني كنت مخطئاً. ولهذا طلبت من المحامي أن يتجاهل تعليماتك له.

عادت نيكولا تجلس على الأريكة وهي تعترض: «لكن لا بد أنك تريد أن تستعيد المنزل».

- إذا أردت أن تبيعي، فيسعدني أن أشتريه بسعر السوق.

- والخاتم؟

فقال بابتسامة، وكأنه يسخر من نفسه: «كنت دوماً أتصوّر نفسي أعطيه للمرأة التي أحبّها وأريد أن أتزوجها..».

وبعد لحظة، تابع يقول: «كان دايفيد يهذر بعد التخدير. أخذ يكرّر قوله إن عليّ أن أمنعك من أن تأخذيه..».

فحبست أنفاسها فيما أضاف: «يبدو بأنك أخبرته أنك راحلة...».

وعندما تردّدت، غير واثقة بما تجيب، قال: «اسمعي، أعرف أنه جاء إلى غرفتك... لقد خطر في بالي أن تكوني وقعت في حبه..».

- لا، لم أقع في حبه.

وسمعت دومينيك يتنهّد بارتياح: «لكنك قلت إنه يشبه جيف، واعترفت بأنك..».

- إنه فعلاً يشبه جيف، في شكله على الأقل، لكن لم يحصل بيننا أيّ شيء.

- الحمد لله!

- قلت هذا فقط لأنني كنت متكدّرة.

- لماذا كنت متكدّرة إلى هذا الحدّ؟

- لم تعجبني فكرة أن أنجذب إلى خطيب امرأة أخرى.

فقال بهدوء: «لكنك سمحت لي بمعانقتك مرة أخرى».

فاحمر وجهها وقالت: «لهذا السبب أنا راحلة».

- فهمت. هل يتغيّر قرارك بالرحيل إذا أخبرتك أنني لا أنوي الزواج من كارلا؟

لم تجرؤ نيكولا على أن تتمسك بالأمل، فانتظرت وعيناها مسمّرتان على وجهه وهو يتابع: «أردت أن أستقر وأكوّن أسرة، لكنني لم أجد المرأة التي أحلم بها. كارلا فتاة جميلة جداً وأنا معجب بها، فاتفقنا على الخطوبة. كنت سأتزوجها لو أنني لم أكتشف صدفة، أنها تحب دايفيد. فتوسّلت إليّ أن أحفظ ذلك سراً وأدع الأمور تستمر على ما هي لفترة... ووافقت أنا، لكن دايفيد أخذ يلمّح إلى ما جعلني أشك في أن الاهتمام بينهما متبادل..».

تذكّرت حديثهما، هي ودايفيد، في المطعم، فقالت: «أنا واثقة من أنّك على صواب».

ـ إنهما أكثر تناسباً من حيث العمر. إذا قرّرت كارلا أن تستمر مع ذلك الوغد فستحتاج إلى أن تسيطر على سلوكه بحزم...

ـ ألن تعترض أمها؟

فقال بشيء من التهكم: «أتصور أن السنيورا فيريني، التي تكنّ عطفاً خاصاً لدايفيد، سيسعدها أن تستبدل واحداً من أسرة لوريدان بآخر. ربما يمكنه أن يقنعها بالانتقال إلى أميركا، ما يبعده عن قبضة رجال مثل أنجيلو... وبمناسبة الحديث عن انجيلو... ألن تخبريني بالضبط ما الذي حدث اليوم؟ ولماذا أرسلك دايفيد؟»

ـ أرادني أن آخذ... رسالة.

ـ رسالة؟ لماذا؟ أما كان بإمكانه أن يتصل بواسطة الهاتف؟

كان ذهنها خالياً تماماً فلم تستطع أن تقول شيئاً.

ـ ألم تكن الرسالة شفهية؟

ـ لا. بل هي عبارة عن مغلف.

فقال دومينيك وكأنه يفكّر بصوت مرتفع: «لماذا تحمّل كل ذلك الإزعاج لإرسال ورقة؟ لَمَ لم يرسل رسالة على الإنترنت أو الفاكس؟ إلا إذا كان هناك شيء آخر في المغلف..».

إنّه ذكي للغاية، كما أخذت نيكولا تفكّر. حاولت أن تبدو هادئة لكنها فشلت.

ولاحظ، بعينيه الحادّتين، اضطرابها، فقال: «هل كنت تعلمين ما في داخل المغلف؟»

فقالت كارهة: «نعم».

ـ حسناً؟

ـ ألا يمكنك أن تسأل دايفيد؟

ـ أنا أسألك أنت وأريد جواباً.

فقالت تعترف، رغماً عنها: «كان خاتم الحظ».

فسألها غير مصدّق: «وهل أعطيته إياه؟»

ـ لا، دايفيد عرف مكانه فجاء وأخذه. اكتشفت أنه مفقود أثناء حزم أمتعتي. كنت أنوي أن أتركه لك.

فتأوّه: «لا عجب في أن انجيلو تركنا نخرج بسهولة. كنت سأدفع له النقود، لكنّه حصل على الخاتم...».

فهزّت رأسها: «لا، لم يحصل عليه».

ـ ماذا تعنين بقولك «لم يحصل عليه»؟

ـ كان المغلف سميكاً جداً فبدا لي ذلك غريباً. وعندما كنت انتظر في مكتب أنجيلو تملّكتني الشكوك...

ثم حدثته، بقدر ما أمكنها من ثبات، كيف فتحت المغلف وكيف تخلّصت منه حين سمعت شخصاً قادماً وماذا قالت أنجيلو.

ـ لهذا السبب أبقاك رهينة عنده... لكي يضغط على دايفيد! وإذا لم يرَ الخاتم مصادفة، فسيبقى قرب سلة المهملات.

ـ لا. عندما تخلصت من المغلف والرسالة، احتفظت بالخاتم.

فقال دومينيك غير مصدّق: «احتفظت بالخاتم؟ كيف استطعت أن تخفيه؟»

فقالت ببساطة: «لبسته في إصبعي».

ثم مدّت يدها اليسرى. كان القناع إلى جهة باطن يدها، فبدا الخاتم «محبس» زواج عادياً.

رفع يدها إلى شفتيه وقبلّها: «أنت لست جميلة وشجاعة بل حادة الذكاء أيضاً».

ابتهجت لإطرائه، وخلعت الخاتم وقدمته إليه، فسألها وعيناه على وجهها: «ألا يعجبك؟ ألا تفضلين أن تلبسيه؟»

فهزّت رأسها: «لا أستطيع. إنه خاتم رائع الجمال وأنا أحبّه، لكنّه ليس ملكي. ما كان لجون أن يتركه لي قطّ».

- وماذا لو أعطيتك إياه؟

- لكن من المفروض أن تعطيه للمرأة التي ستتزوجها.

- أنت إذن تريدينني أن أطلب يدك أولاً؟

شعرت بغصّة تخنقها، وقالت ضارعة: «أرجوك، لا تمزح في هذا الموضوع».

- لم أكن في حياتي جدياً كحالي الآن. هل تتزوجيني يا نيكولا؟

فتحت فمها لا تصدق ما تسمع.

- أعلم أن كلامي فاجأك، لكنني أعلم أيضاً أنك المرأة التي كنت أنتظرها. بالرغم من تصديقي أسوأ الأمور عنك، وقعت في غرامك منذ اللحظة التي رأيتك فيها.

صعقتها السعادة واستمرت تحدّق إليه بصمت، فقال ببطء: «كنت أرجو أن تسامحيني على معاملتي... حتى أنني أملت أن تشعري نحوي بشيء أكثر من مجرد الإنجذاب... لكن يبدو أنني كنت مخطئاً».

وأخيراً تمكّنت من الكلام: «لا، لست مخطئاً. لقد أحببتك منذ البداية، لأنك غير عادي!».

همس بالإيطالية: «يا حبيبتي».

وجلس بقربها يلبسها الخاتم، ثم أخذها بين ذراعيه بمشاعر رقيقة أذابت قلبها وعوّضتها عن كل ما مر بها من أوقات تعيسة.

وبعد فترة، رفع رأسه متذمّراً: «عندما سألتك لماذا سمحت لي بمعانقتك، لم تقولي إنني غير عادي بالنسبة إليك».

- لم أستطع.

- بسبب ما قلته عن جون؟

- نعم. كان جون غير عادي، لكن بطريقة مختلفة تماماً. كان صديقاً ولم يكن حبيباً.

- لماذا تظنينه أورثك كل شيء، بما في ذلك الخاتم؟ لإغاظة أسرة لوريدان؟

- مازلت غير واثقة. كل ما قاله في الرسالة التي تركها لي هو إنه يريدني أن أحصل عليه.

- هل احتفظت بالرسالة؟

- نعم.

وأخذت تبحث في حقيبة يدها إلى أن عثرت عليها فناولته إيّاها، ثم أخذت تنظر إليه وهو يقرأ ما كتب زوج أمه:

«نيكولا، يا عزيزتي، رغم أن معرفتنا ببعضنا البعض كانت قصيرة، إلا أنك كنت لي كالإبنة التي لطالما تمنيّتها، كما أن دفء عواطفك ولطفك كان يعني لي الكثير.

سوف تجدين في المغلف كيساً صغيراً فيه خاتم صوفيا. كنت أعلق هذا الخاتم بسلسلة في عنقي منذ توفيت صوفيا، لكنني أشعر الآن بدنوّ أجلي، ولهذا أودعته عند السيد هارتهل. إنه خاتم فريد غير عادي. كانت حبيبتي تلبسه على الدوام، منذ اليوم الأول لتعارفنا. وقد قالت لي مرة إن هذا الخاتم يجلب السعادة لمن يلبسه، وقد تحقق هذا معها. ولهذا السبب أريدك أن تلبسيه، وأنا مؤمن تماماً بأن صوفيا موافقة على ذلك.

رغم أننا كنا، نحن الإثنان، متزوجين من قبل، إلا أنها كانت حب حياتي، كما أنني، بحسب ما أعتقد، كنت حب حياتها. بقينا معاً خمس سنوات رائعة في غاية السعادة. لم يكن وقتاً طويلاً إلى حد كافٍ، لكن ربما ما كان الوقت، مهما طال، كافياً بالنسبة لنا.

أما بالنسبة إليك، فأنا أعرف أن الوقت الذي أمضيته مع زوجك كان

قصيراً جداً. وأنت ما زلت صغيرة جداً على كل ذلك الحزن والألم اللذين عانيت منهما، وأنا أعلم جيداً أن كل من يفقد حبيباً غالياً، يحتاج إلى وقت للحداد. ولكن تذكري، يا عزيزتي، أنّ الإنسان يجب ألاّ يتمسك بالحداد إلى الأبد، وقد حان الوقت لكي تغيري وضعك في الحياة. كوني سعيدة».

جون

عندما انتهى من القراءة، أعاد الرسالة إليها ببطء: «أنا مدين لك بالاعتذار. ما إن بدأت أعرفك حقاً حتى شعرت بأنني كنت مخطئاً بحقك. لكنني اضطررت للتروّي في تصرفاتي معك لكي أتأكد... أعرف أنني كدّرتك وضايقتك كثيراً. أتمنى فقط لو أن بإمكاني أن أعوّض عما فعلت».

فقالت بجرأة بالغة: «حسناً، يمكنك...».

ـ ماذا أفعل، يا حبيبتي؟

ـ سيكون جميلاً أن نتزوج غداً.

لمعت أسنانه البيضاء بابتسامة: «اعتبري ذلك قد تحقق. رغم أنه يعني إرجاء موعد انجيلو»...

ثم عانقها وسألها: «كيف حالك؟»

ـ أحسن حالاً، لماذا؟

ـ ما رأيك في أن تستلقي قليلاً ريثما أحضر لك بعض الطعام وأطعمك بيدي؟

تظاهرت بأنها تفكر في الأمر: «حسناً، بسبب الرضوض التي في وجهي، أنا واثقة من أن الاستلقاء يريحني أكثر من الجلوس».

ـ ماذا تنتظرين إذن؟

ـ أن تضمني بين ذراعيك وتقول لي إنك تحبني!

وهكذا فعل...

* * *